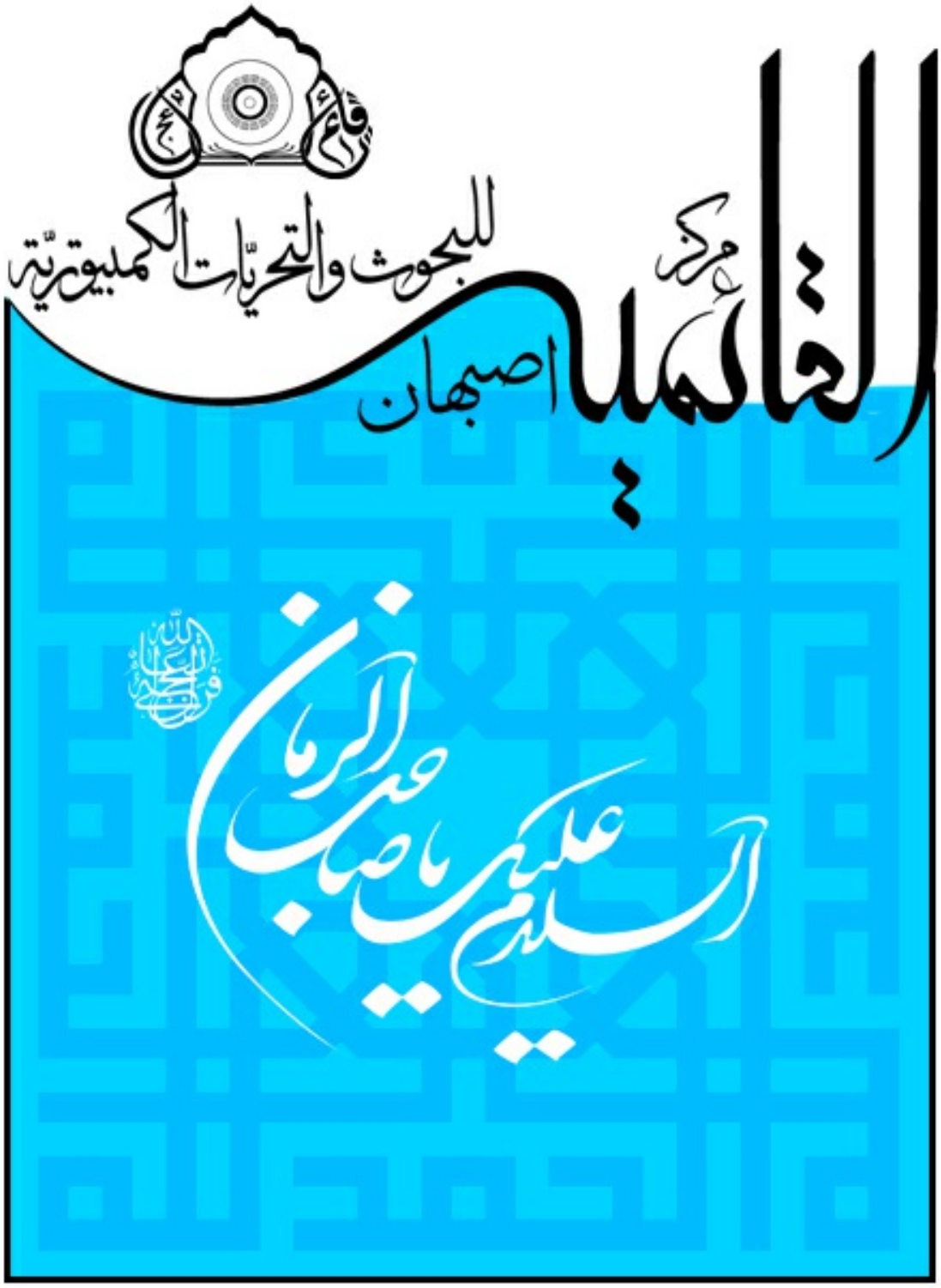

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

سلسلة مصطلحات معاصرة

6

الليبراليّة

تأليف
شهريار زرشناس

ترجمة
حسن العطّاف

بسم الله الرحمن الرحیم

سلسلة مصطلحات معاصرة

كاتب:

الشيخ مرتضى فرج

نشرت في الطباعة:

العتبة العباسية المقدسة

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس 5

سلسلة مصطلحات معاصرة : الليبرالية المجلد 6 7

هوية الكتاب 7

اشارة 7

الفهرس 11

مقدمة المركز 13

تمهيد 15

تأصيل النظرية الليبرالية ومعناها اللغوي 17

مراحل نشوء الليبرالية الكلاسيكية 21

اشارة 21

أ- تكوّن الإنسان الحداثوي 24

ب- نشوء الإقتصاد الرأسمالي الحداثوي 32

آراء الممهدين للنظرية الليبرالية 37

اشارة 37

بي ير دوبوا 39

مارسيليوس من بادوفا 41

نيكولو مكيافيلي 43

الأسس الفلسفية لليبرالية الكلاسيكيّة 62

التجريبيّة 63

المذهب الذرّي 65

القراءة الحداثويّة للإنسان 67

الأخلاق العلمانيّة – الإنسانويّة في عصر الحداثة 69

القراءة الحداثويّة لمفهومَي السلطة والسياسة 72

الديمقراطية الحداثويّة 75

نظريّة التقدّم 79

فلسفة الحق ذات النزعة الإنسانويّة 81

الليبرالية والماسونيّة والقبلانيّة 89

4- الحسيديّة المتأخّرة (الجديدة) 95

حول الجانب الأيديولوجي 104

خصائص الليبرالية الكلاسيكية 127

الخلاصة 154

تعريف مركز 160

سلسلة مصطلحات معاصرة : الليبرالية المجلد 6

هوية الكتاب

سلسلة مصطلحات معاصرة

العتبَةُ العَبّاسِيَّةُ المُقَدَّسَة

المَرْكَز الاسلامي لِلْدِراسَات الاستراتيجية

الليبراليّة

تأليف: شهريار زرشناس

ترجمة حسن الصرّاف

محرر الرقمي: محمد علي صادقي قوام آبادي

* الناشر: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية العتبة العباسية المقدسة

* الطبعة: الأولى 2017م - 1439ه-

ص: 1

اشارة

بسْم الله الرّحْمن الرّحيم

ص: 2

هويّة الكتاب

* الكتاب: الليبرالية

* تأليف: شهريار زرشناس

* ترجمة: حسن الصرّاف

* الناشر: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية العتبة العباسية المقدسة

* الطبعة: الأولى 2017م - 1439هـ-

ص: 3

الفهرس

* مقدمة المركز ... 7

* تمهيد ... 9

* تأصيل النظرية الليبرالية ومعناها اللغوي ... 11

* مراحل نشوء الليبرالية الكلاسيكية ... 15

* أ – تكوّن الإنسان الحداثوي ... 18

* ب – نشوء الإقتصاد الرأسمالي الحداثوي ... 26

* آراء الممهدين للنظرية الليبرالية ... 31

* بي ير دوبوا ... 33

* مارسيليوس من بادوفا ... 35

* نيكولو مكيافيلي ... 37

* الأسس الفلسفية لليبرالية الكلاسيكيّة ... 56

* التجريبيّة ... 57

* المذهب الذرّي ... 59

* القراءة الحداثويّة للإنسان ... 61

* الأخلاق العلمانيّة – الإنسانويّة في عصر الحداثة ... 63

* القراءة الحداثويّة لمفهومَي السلطة والسياسة ... 66

* الديمقراطية الحداثويّة ... 69

* نظريّة التقدّم ... 73

* فلسفة الحق ذات النزعة الإنسانويّة ... 75

* الليبرالية والماسونيّة والقبلانيّة ... 83

* 4 – الحسيديّة المتأخّرة (الجديدة) ... 89

* حول الجانب الأيديولوجي ... 98

* خصائص الليبرالية الكلاسيكية ... 121

* الخلاصة ... 148

مقدمة المركز

تدخل هذه السلسلة التي يصدرها المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية في سياق منظومة معرفية يعكف المركز على تظهيرها، وتهدف الى درس وتأصيل ونقد مفاهيم شكلت ولما تزل مرتكزات أساسية في فضاء التفكير المعاصر.

وسعياً الى هذا الهدف وضعت الهيئة المشرفة خارطة برامجية شاملة للعناية بالمصطلحات والمفاهيم الأكثر حضوراً وتداولاً وتأثيراً في العلوم الإنسانية، ولا سيما في حقول الفلسفة، وعلم الاجتماع، والفكر السياسي، وفلسفة الدين والاقتصاد وتاريخ الحضارات.

أما الغاية من هذا المشروع المعرفي فيمكن إجمالها على النحو التالي:

أولاً: الوعي بالمفاهيم وأهميتها المركزية في تشكيل وتنمية المعارف والعلوم الإنسانية وإدراك مبانيها وغاياتها، وبالتالي التعامل معها كضرورة للتواصل مع عالم الأفكار، والتعرف على النظريات والمناهج التي تتشكل منها الأنظمة الفكرية المختلفة.

ثانياً: إزالة الغموض حول الكثير من المصطلحات والمفاهيم التي غالباً ما تستعمل في غير موضعها أو يجري تفسيرها على خلاف المراد منها. لا سيما وأن كثيراً من الإشكاليات المعرفية ناتجة من اضطراب الفهم في تحديد المفاهيم والوقوف على مقاصدها الحقيقية.

ثالثاً: بيان حقيقة ما يؤديه توظيف المفاهيم في ميادين الاحتدام الحضاري بين الشرق والغرب، وما يترتب على هذا التوظيف من آثار سلبية بفعل العولمة الثقافية والقيمية التي تتعرض لها المجتمعات

العربية والإسلامية وخصوصاً في الحقبة المعاصرة.

رابعاً: رفد المعاهد الجامعية ومراكز الأبحاث والمنتديات الفكرية بعمل موسوعي جديد يحيط بنشأة المفهوم ومعناه ودلالاته الإصطلاحية، ومجال استخداماته العلمية، فضلاً عن صِلاته وارتباطه بالعلوم والمعارف الأخرى. وانطلاقاً من البعد العلمي والمنهجي والتحكيمي لهذا المشروع فقد حرص لامركز على أن يشارك في إنجازه نخبة من كبار الأكاديميين والباحثين والمفكرين من العالمين العربي والإسلامي.

***

هذا البحث من سلسلة مصطلحات معاصرة محاولة للإحاطة بالليبرالية كنظرية ومصطلح ومفهوم فيه يقدّم الباحث الإيراني شهريار زرشناس قراءة تاريخية للنظرية الليبرالية بوجهيها الكلاسيكي والمعاصر ويبين الأسس الفكرية والفلسفية التي ارتكزت إليها كما وردت في المدارس والتيارات الحديثة في أوروبا.

والله ولي التوفيق

ص: 8

تمهيد

الليبراليـة هي الأيديولوجيا الأولى والأقوى في العالم الحديث. لقد تحوّلت الليبرالية منذ العقود الأخيرة من القرن العشـرين إلى ما يُسـمّى ب- "نيوليبرالية – Neoliberalism" أو "الليبراليـة الحديثة"، وأصـبحت الأيديولوجيا المُهيمنة على العالم الغربي وكذلك العالم الحداثوي المتأثّر بالغرب. لا شكّ في أنّ الليبراليـة هي الأيـديولوجيا الرائـدة والأساسـية في الفكر الحـداثوي ويبـدو أنّها أقـدم نظريّة في الفكر الغربي وأكثرها صـموداً. إنّها تمثّل الأيـديولوجيا الرئيسـة في النظام الرأسـمالي الغربي الحـديث وهي أكثر نظريّة تتطابق وتتواءم مع مصالح الطبقة الرأسمالية الحديثة والعلمانيّة.

لقـد تمخّضت النظرية الليبرالية عن الفكر الغربي في القرن السادس عشـر وأصـبحت أيديولوجية واضـحة المعالم ومهيمنة في القرن السابع عشـر، وانتشـرت بشـكل متدرّج ولعبت دوراً أساسـياً ومهمًّا في المجال السياسـي طوال القرنَين الثامن عشـر والتاسع عشر، وكانت سبباً في تحولات اجتماعية وسياسـية عظمى في المجتمعات الغربيّة. وفي سياق تطوّرها التاريخي أصبحت لليبرالية أقسامٌ مختلفة، ويمكن تلخيص هذه العناوين وتمييزها في الأنواع الثلاثة الآتية:

1- الليبراليـة الكلاسـيكية: التي نشأت في القرن السادس عشـر وكانت كهيئة الجنين الذي لم يكتمل، وبرزت في القرن السابع عشـر بهيئة أيديولوجيـة متكاملـة ومؤثّرة، ولعبت دوراً بارزاً وأساسـياً طوال القرنَين الثامن عشـر والتاسع عشـر خدمـةً للمصالـح الرأسـمالية الحديثة في المجتمعات الغربية، وكذلك لتأمين الأهداف الاستعمارية التي رسمها المستعمرون الغربيون في البلدان والدول غير الغربية. كما

استمرّت حياة الليبرالية الكلاسيكية إلى حدّ ما طوال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين. ولكن تراجع دورها المؤثّر بالتدرّج بتوسع الأيديولوجيات الفاشيّة والاشتراكية ذات التوجه الماركسي، والاشتراكية ذات التوجه الديمقراطي.

2- الديمقوراطية الاشتراكية التي تعود نشأتها للنصف الثاني من القرن التاسع عشر تمثّل الجانب المعتدل من الليبرالية، إذ تبلورت إثر الأزمات والانتكاسات التي واجهتها الليبرالية الكلاسيكية، واعتُمِدت كمنهجٍ لإنقاذ الرأسمالية الغربيّة.

لقد صعد نجم الديمقراطية الاشتراكية في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية واستمرت حتى العقد الثامن من القرن العشرين، وتراجع دورها لاحقاً مع نشوء الليبرالية الحديثة.

تقدّم الديمقراطية الاشتراكية قراءةً ليبرالية للنظرية «الاشتراكية»، وهي تعمل وفق المنظومة الفكرية الليبرالية ولا تحيد عن الغاية النهائية في دعم المصالح الرأسمالية وفق المعايير الليبرالية الرئيسة. ولكنّها تسعى في الوقت ذاته للتقليل من ضغط أصحاب رؤوس الأموال على الأوساط العمّالية في المجتمعات الغربيّة، وغالباً ما تخدع هؤلاء بتقديمها بعض الامتيازات (التي تكون أقلّ بكثير من استحقاق العامل والمستضعف في المجتمع الغربي)، وبذلك تدفع خطر الاحتجاجات والمظاهرات والاضرابات العمّالية، وتحافظ على الهيمنة الاستعمارية والرأسمالية ذات التوجه العلماني والحداثوي.

على الرغم من أنّ الديمقراطية الاشتراكية تستعير مفاهيمها

ومصطلحاتها وشعاراتها من الاشتراكية الحديثة إلّا أنْ نسقها العام يعتمد النظريّة الليبرالية وتلتزم بالغايات الليبرالية بصورة غير مباشرة.

3- الليبراليـة الحديثة (Neoliberalism): تمثّل أحـد أنماط المدرسـة الليبرالية، إذ تشـكّل أساسـها النظري في بدايات القرن العشـرين، (ويمكن إرجاع ذلك إلى أواخر القرن التاسع عشـر). ولكنّ تنظيرها الحقيقي والمنسـجم بدأ بعد النصف الثاني من القرن العشرين، وبرزت منـذ أواخر السـبعينيات بصـفتها الأيـديولوجيا المهيمنـة والمتنفـذة في الفكر الغربي، وهي الآن تعدّ النظرية الرائدة والحاكمة بلا منازع في العالم الحديث.

تأصيل النظرية الليبرالية ومعناها اللغوي

إنَ النواة الأساسية في النظرية الليبرالية تعتمد «الحريّة الفرديّة». إنّ كلمة (Liberalism) مأخوذة من الأصل اللاتيني (1) (Liber) بمعنى (الحُرّ)، وعليه يمكن القول إنّ الليبرالية في اللغة تعني «الدعوة إلى الحرية»؛ على أنَّ هذا المنظور للحرية يجب أن يخضع لدراسة تأويلية.

إن كلمة «ليبرال» هي ككلمة (Liberty / الحريّة) مأخوذة من الجذر اللاتيني (Liber) بمعنى «الحُر». (2) ولكن لفهم معنى الليبرالية

بصفتها أيديولوجية واضحة المعالم يجب البحث والتنقيب في مفهوم «الحريّة الفرديّة»، وقد لا يتحصّل ذلك إلّا بالمنهج التأويلي.

ولتقديم قراءة تأويلية لمفهوم «الحريّة الفرديّة» يجب الوقوف

1- نظراً لبحثي المفصّل عن مفهوم (الحريّة) سأتجنّب تكراره هنا. ينظر: شـهريار زرشـناس، درباره آزادى، كانون انديشه جوان، 1391ه-.ش.

2- هارولد لاسكي، الحريّة في أوربّا، رحمة الله مقدم مراغه أي، شركت سهامي كتابهاي جيبي، 1347ه-.ش، ص94.

على مفهومَي «الحريّة» و «الفردانيّة» (1). عندما نتحدث عن الحريّة نجد أمامنا سؤالَين مهمَّين: «الحريّة من أيّ شيء؟ أوممّن؟» و «الحريّة مِنْ أجل ماذا ومِنْ أجل مَنْ؟»

إنّ حقيقة وجود الإنسان هو عين الربط والتعلّق، فلذلك نجد البشر في العالم الواقعي (وليس في عالم الأوهام الخاص بالنفس الأمّارة المستقلة في العالم الحديث) في ساحة العبوديّة والتعلّق والتبعية من الولاية. فلذلك لا يمكن الحديث مطلقاً عن حريّةٍ مطلقةٍ للفرد (سواء كان ذلك ممكن الحدوث، أو مسألة حاصلة فعلاً). ثمّة تعلّق وعبوديّة موجودة دوماً وراء أي حريّة، وعليه ينبغي الانتباه إلى أننا عندما نكون بإزاء الحريّة وشعاراتها يفترض بنا أن نعلم أنّ هذه الحرية تكون من أيّ شيء أو مِمَّن؟ وما هي النتائج المطلوبة من هذه الحرية، وإن الفرد المتحرر يفترض أن يكون تحت إمرة من؟ إن البحث في مفهوم الحريّة لا يستفسر عن وجود العبودية أوعدم وجودها، بل يريد أن يعرف من الذي يتحرر منه الفرد عندما يكون حرّاً وإلى من ينقاد بعدئذ؟ فعندما نتحرر هل نتحرر من عبوديّة الحق لنكون عبيداً للطاغوت والشيطان؟ أم نتحرر من عبودية الشيطان والطاغوت لنصل إلى عبودية الحق واتباع الولاية الإلهية؟ إن الليبرالية بصفتها نظرية ذات طابع حداثوي تدعو إلى اتباع النفس الأمّارة، ولكنّها في شعاراتها الداعية للحرية تدعو إلى تحرير الفرد من كلّ الأمور التي تناوئ النفس الأمّارة. إذن إن أحد

---

1 – Individualism، الفردية أو الفردانيّة، هي موقف أخلاقي، وفلسفة سياسية، وأيديولوجيا، أوتلك النظرة الاجتماعية التي تؤكد القيمة المعنوية للفرد. تدعو الفردانية إلى ممارسة أهداف الفرد ورغباته لتكون قيمه مستقلة ومعتمداً على نفسه. ترى الفردانية إن الدفاع عن مصالح الفرد مسألة جذريّة يجب أن تتحقق فوق اعتبارات الدولة والجماعات، في حين يعارضون أي تدخل خارجي في مصلحة الفرد من قبل المجتمع أو المؤسسات مثل الحكومة. وغالباً ما تتناقض الفردية والديكتاتورية أو الجماعية.

المطالب الجوهريّة في الشعارات الليبرالية الداعية للحرية هي الخضوع لهيمنة النفس الأمّارة والقبول بالعبوديّة لها (1).

إنّ هـذه النواة الأساسـيّة في متبنيات الليبرالية (أي: الحرية الفردية) تقدّم قراءةً حداثويّة لمفهوم «الفرد»، إذ تبلورت هذه القراءة في المنظومة الفكريّة الليبرالية تحت عنوان (الفردانيّة _ Individualism). تَعدُّ الليبرالية «الوجهَ الفرديَّ للنّفس الأمّارة» حقيقة الإنسان، إذ جرى تعريف الإنسان في هـذه المنظومة الفكريّة وفقاً لهذا المنظور الذي يعدّ الإنسان كائناً نفسانيّاً قائماً بذاته، (أي: إنّه كائن يتحرك ويتحفّز بأمياله وآماله غير المحدودة وغير المقيّدة وغير المشروعةوالنفعيّة والباحثة عن التلذذ والسلطة والتكبّر والاستثمار)، و هو في ذاته لا يملك أي حسّ وحافز إيجابي تجاه نظيره الآخر، بل إنّ ما يقرّبه من الآخرين بصورة مؤقّتـة، أويبعـده عنهم هوعوزه وميله لتحقيق الرغبات والهيمنة على الآخر. إنّ البُنية الداخلية في الفردانيّة التي تُعد من أساسـيات الليبرالية، والتي قد يمكن أن نسـميها الفردانيّة الليبرالية تسـتبطن نظرةً نفعيّة بحتة للإنسان وللحياة. ويمكن القول إذن إنّ مصداق «الفرد» وفق المنظور الليبرالي هو الفرد الحداثوي الحائز رأس المال. يقول هارولد لاسـكي (2) بهذا الصدد:

إنّ الفرد في هذه الحقبة هو مظهرٌ للتاجر الحداثوي، أوربُّ عملٍ حديث، أومكتشف حديث [من صنف هؤلاء المغامرين القساة الذين كانوا روّاد الاستعمار الغربي في البلدان الآسيويّة والغربية

1- آلبر هيرشمن، هواهای نفساني ومنافع، محمد مالجو، شيرازه، 1379ه-.ش، ص 42،41،40،35

2- (م 1950 - 1893) Harold Joseph Laski واحد من أهمّ المنظّرين السياسيين وأساتذة الاقتصاد في القرن العشرين. (م)

وأمريكا اللاتينية] يستهوي الأخطار بأفكار جديدة. (1)

يعتمد مفهوم الفردانيّة في النظريّة الليبرالية مفهوماً آخر نسـمّيه «الفرد المنتَشَر»، إذ يمثّل المظلّة العامّة لمحور الفردانيّة في النظرية الليبرالية. إن مفهوم الفرد المنتَشَر يشـير إلى تلك الصورة المثاليّة التي ترسـمها الحداثة عن الإنسان. إن الحداثة تريد أفراداً سـطحيين و متناسقين في نمط الحياة والسلوك والهويّة العامّة، ليتكوّن مجتمعاً يتواءم مع المصالح الرأسماليّة؛ فهي تروّج النظرة النفعيّة والسالبة للهويّة كنموذج لنمط العيش وتـدعو الجميع لاتباعه. إن البنيـة الأساسـية للفردانيّة الليبرالية تتقابل مع الفردانيّة الإنسانيّة الأصـيلة (التي تؤكّد الرجوع إلى الصورة الإنسانيّـة الثابتة والحقيقية)، وإنّ الحريّة الليبرالية أيضاً تتعارض مع الكمال والحق والعدالة، وتتماشـى مع التبعيّة والعبودية الخالصة للنفس الفرديّـة الأمّارة. إنّ الليبراليـة بصورها المختلفة هي الأيديولوجيا المدافعة عن الرأسـمالية في إطارها الحداثوي والعلماني والمبررة لها، ولا تقـدّم شـيئاً للمحرومين والمستضـعفين سوى الفقر والظلم. إنّ الليبراليـة تنشـد الحريّة لمصـلحة الفرد المنتَشَر، وإنّ الأخير هو الأنموذج الليبرالي والمتزلزل للكائن البشـري الحـداثوي، وهو النموذج المطلوب والأنسب وفق المنظور الليبرالي، إذ يمثّل صورة مشوّهـة وممسوخة عن الفردانيّة الحقيقية ذات البُعد الإنساني الأصـيل. إنّ الفرد المنتَشَر يمثّل تلك الصورة الكاذبة التي ترسمها النظرية الليبرالية عن المجتمع الخاضع لسلطة رأس المال.

ما هي ملامح الفرد المنتَشَر في النظام الليبرالي الرأسمالي؟

-Lazarov, Veladimer/ The Political and Social Ideas in modrn age/press/1992/ P.186. -1

1- إنّه يمثل إنساناً وسطيّاً عاميّاً يعتمد العقل الجمعي المشترك (common sence).

2- إنّه أسير عقل معيش. أي العقل المنقطع عن عقل الهداية، والذي لا يكترث أبداً بالمعاد وعالم المعنى والملكوت، ويمضي غارقاً في النفعيّة الليبرالية.

3- إن الفرد المنتَشَر هوفردٌ فاقدٌ لأيّ غاية وهدف، وتتلخص حياته ومعناها في توفير المستلزمات الماديّة لحياة حداثوية برجوازيّة.

4- إنّه كائنٌ فاقدٌ للمسؤولية الاجتماعيّة والشعور الإنساني، ولا يستمع لنداء «الضمير الذي يدعو إلى الحُب والروحانيّة».

5- يمثّل الفرد المنتَشَر الصورة الحقيقية للفردانيّة الليبرالية. إنّه يعيش وفق نمط الطبقة الرأسماليّة.

مراحل نشوء الليبرالية الكلاسيكية

اشارة

تمثّل الليبرالية الكلاسيكية_كما أسلفنا_ الصورة الأولى من صور النظرية الليبرالية، وفي الوقت نفسه تُعَد النظرية الرائدة والمهيمنة في العالم الحديث. يمكن تعقّب الجذور النظريّة الأولى التي سبقت نشوء الليبرالية الكلاسيكية في القرن الخامس عشر، وذلك في آراء أصحاب النزعة «المركنتيلية» (1) الاقتصادية. ولكنّ التبلور النظري الأوّل لليبرالية الكلاسيكية بصفتها نظريّة واضحة المعالم يعود إلى القرن السادس عشر.

1- Mercantilism الإتجارية أو مذهب التجاريين أو المركنتيلية، يعرفها المعجم المنجد في اللغة العربية المعاصرة بأنها «نزعة للمتاجرة من غير اهتمام بأي شيء آخر»، وهي مذهب سياسي - اقتصادي ساد في أوروبا فيما بين بداية القرن السادس عشر ومنتصف القرن الثامن عشر.

قد يُطرح سؤالٌ يفيد: ما هي الأسباب الرئيسة التي أدّت إلى نشوء الليبرالية الكلاسيكية في القرن السادس عشر؟ وما هي العوامل التي أدّت إلى صعود نجمها في القرنَين السابع عشر والثامن عشر؟ للإجابة على هذين السؤالين يمكن الولوج من عدّة محاور. فعلى الرغم من أنّ هذه المحاور مندمجة تماماً في الإطار التاريخي ولا يمكن تجزئتها، ولكن لتبسيط الإجابة نبادر إلى تفكيكها:

أ- تكوّن الإنسان الحداثوي

ب- نشوء الاقتصاد الرأسمالي الحداثوي

ج- نشوء الأفكار الحداثوية التي مهدت لنشوء النظرية الليبرالية

إنّ الأحداث التي وقعت في التاريخ الأوربيّ إبّان القرنَين الثالث عشر والرابع عشر، وإنّ القراءة التأويلية للتطورات الكبيرة التي حصلت على مستوى التفكير والسلوك الغربيَين منذ أواخر القرن الثالث عشر تشير إلى بزوغ عالَم جديد في ذلك الحين. إنْ شئنا قراءة الأمر من وجهة نظر فلسفة التاريخ المعنويّة، وإنْ اعتمدنا الفهم التأويلي في هذه القراءة فسنرى أنّ هذا العالم الجديد (أي العالم الغربي الحداثوي) هوعالم أصالة الإنسان وعالم استقلاليته، حيث تكون الأصالة التامّة والمطلقة للإنسان الحداثوي، ويكون مهيمناً على العالم بدلاً من الله.

إذن يمكننا أنْ نتحدّث عن ظهور عالم جديد منذ القرن الرابع عشر، وهو عالم تهيمن عليه النفس الأمّارة، وتتمثل روحه الباعثة لتوحيده في النظرية الإنسانية (Humanism)(1) . إنّ الإنسانيّة هي

1- الإنسانية هي مجموعة من وجهات النظر الفلسفية والأخلاقية التي تركز على قيمة وكفاءة الإنسان، سواء كان فرداً أو جماعة، وتفضل عموماً التفكير والاستدلال (العقلانية، التجريبية) على المذاهب أو العقائد الثابتة أو المنزّلة.

من جوهر العالم الحداثوي ومن داخل ذاته، وإنّ سائر الخصائص والصفات والمظاهر هي من مظاهر هذه الذات الجوهريّة. إنّ العالم الغربي الحديث هو عالم «الاستكبار الإنسانوي»، فبظهور الاستكبار الحديث اقترن تاريخ الغرب الحداثوي بالنفس الأمّارة وبكلّ ما فيها من صفات وخصائص وجوانب مختلفة ليتكوّن بعد ذلك عالمٌ تكتنف حقيقته بهيمنة هذه النفس على المستوى النظري (كالفكر والفلسفة والفن والأدب والعلوم والشعر والخطابة والكلام، حتّى إن كان ذلك في إطارٍ ديني) وعلى المستوى العملي (كنمط العيش والعلاقات الاقتصادية والنظام الأُسَري والنسق المعماري وتخطيط المدن ونظام التعليم والجيش والحروب وسائر المظاهر التكنيكية وغيرها من وجوه الحياة الماديّة المتوعة والمعقّدة). إنّ العالم الحديث هذا قد تورّط وانهمك بالعدميّة والعلمانيّة بصورة أشدّ وأعمق مما هو كان في العالم الغربي الإغريقي والروماني.

إن العالم الحديث الذي ولد في أحضان النفس الأمّارة والروح الداعية للنظرية الإنسانوية يتبلور في إطار التعريف الجديد لعلاقة الإنسان مع هذا العالم. إنّ العالم الإنسانوي المستقل ليس بمعزلٍ عن الإنسان المستقل صاحب النزعة النفسانيّة.

بناءً على ما تقدّم يمكن أنْ نعرّف انساناً جديداً ظهر منذ أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر، وهوما سميّ بالإنسان الحداثوي (الإنسان المنتمي للنظرية الإنسانويّة)، وبناءً على العلاقة الموجودة بين هذا الإنسان والعالم، واستناداً إلى

طبيعة قراءته لنفسه ولله وللعالم يتعرّف العالم الحديث.

أ- تكوّن الإنسان الحداثوي

يتبلور عالم الإنسان بناءً على ذلك العهد الذي يبرمه الإنسان مع معبوده. إن التاريخ الغربي الحديث قد تكوّن في إطار النفس البشريّة، لذلك إنّ صورة الإنسان النوعيّة تعبد النفس الأمّارة. لطالما كانت الصورة الإنسانية المثاليّة في مختلف الحِقَب التاريخية تتبع الشيء أو الذات التي يعبدها الإنسان. إن الصورة المثالية للإنسان الحداثوي هي ماهيّةٌ سُمّيَت ب- «الإنسان البرجوازي». إن القصد من الإنسان البرجوازي ليس تلك الطبقة التي سمّاها «كارل ماركس» الطبقة البرجوازية. إنّ الصورة المثاليّة للإنسان البرجوازي هي ماهيّة لا يحدّها المفهوم الطبقي (وفق المنظور الماركسي)، بل هي تشير إلى حقيقة الإنسان الحداثوي وبواطنه ، أي (الطبيعة التاريخية للإنسان الحداثوي). إنّ الطبقات والفئات الاجتماعيّة والأفراد في العالم الحداثوي يُدرَجون تحت تلك الصورة المثاليّة للإنسان الحداثوي. إذن لمعرفة الذات والطبيعة التاريخية للإنسان الحديث يجب دراسة ماهية «الصورة المثاليّة للفرد البرجوازي». وهنا يجب تأكيد على أن مفهوم (البرجوازي) في دراستنا هذه هي بمعنى «Borg» أي «المدينة» أو «المدينة العصريّة». عندما أصبح الإنسان الحداثوي في أوروبا خلال القرنَين الثالث عشر والرابع عشر يسكن في المدن الحديثة، وجعل من المدن مركزاً لنشاطاته اليوميّة أطلق عليه «البرجوازي» (أي ساكن المدينة الحديثة)، وبعبارة وجيزة سُمّيَ كلّ من يعيش في العالم الحديث، وكلّ من يروّج ويجسّد الآمال والأهداف النفعيّة والاقتصاديّة والنفسيّة للعالم الحديث سُمّيَ ب- «البرجوازي».

ص: 18

إنّ الصورة المثاليّة للإنسان البرجوازي تمثّل الحقيقة النوعيّة للإنسان الحداثوي الغربي والمغترب الذي نشأ خلال العصور الحديثة وفي المجتمعات الغربية الحديثة أوالمستغرَبة بمختلف الصور والمستويات والوجوه وفي الطبقات الاقتصادية والاجتماعية المتنوعة كالرأسماليين والعمّال والطبقات الوسطى حتّى الريفيين والرعاع (1) (اللومبنبروليتريا – Lumpenproletariat). يمثّل الإنسان البرجوازي الصورة المثاليّة لكلّ إنسان حداثوي، لا ـ ينتمي بالضرورة لطبقة اجتماعيّة محددة. على الرغم من ذلك فإنّ التجليات المثاليّة للفرد البرجوازي تختلف من طبقةٍ وفئةٍ اجتماعية إلى أخرى.

لنا أنّ نتساءل هنا ما هي الخصائص الأصليّة للفرد البرجوازي الذي يمثّل الصورة المثاليّة للإنسان الحداثوي؟ إنّ علاقة الفرد البرجوازي مع العالم وسائر الأفراد تتعرف في نطاق مفاهيم النظرية الإنسانوية، فإنّه يتعامل باستقلاليّة مع ذاته والطبيعة وسائر الأفراد. إنّ الفرد البرجوازي بصفته موضوعاً نفسانيّاً يمثّل «حيواناً اقتصادياً» أكثر من أيّ شيء آخر. بعبارة أخرى إنه حيوان نفعي يبحث عن الأرباح فقط، ولا يحدّه أي شيء ولا يردعه في سبيل جني الأرباح. إنّ باطن الفرد البرجوازي قد يتأسس على جني الأرباح بصورة غير مشروعة وغير محدودة، وهي نزعة استثماريّة تعود جذورها إلى علاقة الإنسان الذاتانيّة (2) مع العالم والآخرين.

يمكن تلخيص ملامح الصورة المثاليّة للفرد الحداثوي التي عبّرنا

1- اللومبنبروليتريا (Lumpenproletariat) ما تعرف ب-(دون، أو تحت البروليتاريا)، هو مصطلح أطلقه كارل ماركس في بيان الحزب الشيوعي لوصف تلك الطبقة التي تحت الطبقة العاملة والذين لا يحظون بنوع من الوعي وغير مفيدين في العملية الانتاجية او اجتماعيا، ولا فائدة منهم في النضال الثوري.

2- الذّاتَانِيّة (Subjectivism) مذهب فلسفي يرى أنّ «المعرفة كلّها ناشئة عن الخبرة الذاتية» (م).

عنها ب- «الفرد البرجوازي» في النقاط الآتية:

1- محورية جني الأرباح في نطاق الحيوان الاقتصادي.

2- النظرة الاستثمارية والأدواتيّة لسائر الأفراد وللبيئة الاجتماعية، (سواء كانت عن وعي أوعن غير وعي)، وهي نزعة مبنيّة على رؤيةٍ تنمو من التكبّر، وهي راسخة في فكر الإنسان الحداثوي وفي سلوكه وكلامه، وهي في الأساس جزء من عالمه الخاص الذي يعيشه.

3- الانهماك بالاستغراب والتورط به؛ الأمر المتجذّر في الجانب الإنسانوي من الفرد الحداثوي وفي طبيعة علاقته مع الكون، وهوما يكشف مدى ابتعاد هذا الإنسان عن الحق والحقيقة.

4- الانهماك بالبُعد الرأسمالي واعتماد ثالوث المال والربح ورأس المال (وفق المنظور الحداثوي والعلماني)، وهو ما يكشف عن نزول الإنسان إلى مستوى بات يُعَبَّر عنه ب- «الحيوان الاقتصادي النفعي المتاجر».

5- اعتماد العقل الحداثوي [العقل ذو النزعة الإنسانويّة] الذي غالباً ما يكون رافضاً للقضايا الغيبيّة، ويميل للاستقلاليّة في التفكير، الأمر الذي يؤدّي إلى انكار الولاية الإلهيّة بمختلف الأشكال والأساليب، إذ يتباهى بإعراضه عن الحقّ والحقيقة. وهو أشبه ما يكون بالنزعة الفكريّة التي اعتمدها الفلاسفة في عصر التنوير، إذ تؤكّد مخالفتها ومجابهتها للتعاليم الدينية، وكتعريفِ «كانت» بالتنوير، إذ يعدّه معادلاً لنبذ العبوديّة لأي موجودٍ بمن فيهم الله، أوكالآراء الفلسفيّة والأيديولوجية التي اعتمدها الحداثويون والكثير من أتباع نظرية ما بعد الحداثة المعاصرين.

إنّ العقل الحداثوي لا يؤمن بالغيب والأمور القدسيّة والولاية الإلهيّة على الإنسان، ويسعى جاهداً للاستيلاء على العالم والإنسان لتسيير أغراضه النفسانيّة. إنّ العقل الحداثوي التي تبلور بصورٍ شتّى في عقلانيّة (1)ديكارت، وفي تفسير كانت، وبشكلٍ ما في تعريف «هيغل»؛ ولكنّه في المحصلّة النهائية يشترك في منهجٍ واحد، إذ يفكّر بطريقة «كمّيّة»، ويعجز تماماً عن فهم ماهيّات الأمور، ويبادر في بعض المَواطن إلى تخطئة السير نحو معرفة الماهيّات، وقد ينكر وجودها في بعض الحالات.

إنّ «الإنسان البرجوازي» بصفته الصورة المثاليّة للفرد الحداثوي، حاضرٌ بصورةٍ أو أخرى في كلّ فردٍ ينتمي للعالم الحديث ويتنفس فيه. إذ إنّ الخصائص آنفة الذكر مهيمنة (بمستوياتٍ متفاوتة) على كلّ هؤلاء، وإنّ الأفراد كلّهم بمختلف فئاتهم الاجتماعية الحديثة من قبيل العامل والتاجر والتكنوقراط وصاحب المصنع والفلّاح والمثقف و... ينتسبون بدرجاتٍ متفاوتة لهذه الصورة المثاليّة، ويبلور كلٌّ منهم من موقعه الوجوه المختلفة والمتفاوتة للإنسان البرجوازي.

إنّ باطن «الإنسان البرجوازي» الذي يفصح عن روحه وحقيقته هو بمثابة علامة فارقة نعرفّها ب- «الحيوان الاقتصادي». إنّ الإنسان البرجوازي قبل كلّ شي هو حيوان نفعيّ اقتصادي، وإنّ هذه المنفعة التي يمكن أن نعبّر عنها ب- «منفعةٍ علمانيّة إنسانويّة» أو «منفعة ذاتانيّة» أو «منفعة حداثويّة» تتعارض في ماهيتها مع ما يعبَّر عنه في المنظور الإسلامي بالمنفعة أوبما يطلق عليه ب-«العلم النافع». إن النفعيّة

---

1 - Rationalism في نظرية المعرفة (الايبستمولوجيا)، العقلانية (أو العقليّة) تطلق على أيِّ فكرٍ يحتكمُ إلى الاستنتاج (أو المنطق) كمصدرٍ للمعرفة أو للتفسير. بمعنى أدقّ، المنهج (أوالنظريّة) الذي يتّخذ من العقل والاستنباط معياراً للحقيقة بدلاً من المعايير الحسيّة.

الحداثويّة هي نفعيّة بعيدة تماماً عن الحدود الشرعيّة والأخلاقيّة، إذ لا يحدّها حدٌّ ولا قيد؛ ولأنّها مبثوقة عن النزعة الإنسانويّة فتكون لها صبغة علمانيّة، وبالتالي تكون ذات توجّه استثماريّ وأدواتيّ.

إنّ المحتوى الرئيس في النفعيّة الإنسانويّة هو الجانب الاقتصادي أكثر من أيّ شيء آخَر، إذ تتجلّى في المجتمعات الغربيّة في إطار تنافس مصالح الطبقات والفئات الاجتماعية، وكذلك في نطاق الصراع بين مصالح الشعوب والدول الحديثة.

لقد اتخذ مفهوم الربح والمنفعة طابعاً اقتصاديّاً منذ بداية عصر الحداثة وبتأثير من الصورة المثالية التي فرضها الفرد البرجوازي، إذ كان كنز الأرباح يعتمد النهج الرأسمالي وبتوجّهٍ علمانيّ، واتسع هذا المنظور خلال القرنَين السابع عشر والثامن عشر. يقول ألبيرت إيريشمان(1) حول تغلّب مفهوم المنفعة والربح (بمعناه الرأسمالي والحداثوي) واختزال هذين المفهومين في الإطار الاقتصادي:

«عندما بدأت الأفكار واللغات تتطور انحسر معنى «منفعة» الأشخاص والفئات في النطاق الاقتصادي، ولم يكن في اللغة الدارجة واليوميّة فحسب، بل أصبح مصطلحاً تخصصياً في علم الاجتماع واشتقت منه مفاهيم أخرى كـ- «المنفعة الطبقيّة» و«الفئات المنتفعة». وقد تجاوز معنى المنفعة الحاكَم ليشمل سائر الفئات الخاضعة للحاكم في كلٍّ من فرنسا وبريطانيا. وفي هذا السياق حققت رسالة «مصالح الأمراء والممالك المسيحية» للدوق هنري

1- (م2012 - 1915) Albert O. Hirschman، خبير اقتصادي مؤثر وكاتب للعديد من الكتب حول الاقتصاد السياسي والفكر السياسي. كانت له مساهمات في وقت مبكر في مجال اقتصاديات التنمية حيث شدد على الحاجة إلى النموغير المتوازن.

أثراً كبيراً، وقـد تُرجمَت فوراً للغة الانجليزية وأثارت ردود أفعالٍ واسـعة. إن أحد أكثر العبارات تأثيراً في هذه الرسالة تكمن في الصـفحات الأولى التي تقول: إنّ المنفعة هي الوحيدة التي لا تغيب أبداً... وهي عبارة تعود للمثل القائل: «المنفعة لا تكذب أبداً»، وقد راج هذا المثل كثيراً في بريطانيا خلال القرن السابع عشـر. وقد نوقشت هذه العبارة أو هذه الرؤية كثيراً – بحسب الحاجة الاقتصادية لها – طوال هذا القرن وذلك خلال المناقشات والمباحثات الراميـة إلى التهدئة السياسـية وإيجاد نوع من التسامح الديني رعاية لمصالح الفئات الاجتماعية. يقول «فليكس روب» في نهاية هامشه على رسالة طويلة حول «المنفعة»:

في نهاية هذه الحِقبة، أي في نهاية القرن السابع عشـر، اتخذت المنفعة معنى اقتصادياً بحتاً. يقول «جي.اي.غان» بعبارة أشـمل: إنّ المنفعة انتقلت سـريعاً من غرف الاجتماعات والمجالس إلى الأسواق. وفي بدايات القرن الثامن عشـر نجد «اللورد شافتسبري» (1) يعرّف المنفعة أو (الربـح) ب– «نزعـة لإيجاد تسـهيلات» تمكننا من البقاء والاسـتمرار، ويعـدّ كنز الثروات «أهواءً نفسـيّة» تكون نافعـة جـدّاً. لذلك يرى «هيوم»(2) أنّ «الميل النفسي لتحقيق المنفعة» أو «العاطفة المرتكزة على المنفعة» هي مترادفة مع «الحرص لكسب المال والمنال» أو مع «حبّ الربـح». إنّ فكرة المنفعـة (بمعنى الربـح) التي تشـكّلت في الأدبيات السياسـيّة بعد ميكيافيلي – أي المعرفة المنضـبطة لكلّ شـيء يضيف من السلطة والثروة والهيمنة – اعتُمدَت

1- Anthony Ashley Cooper, 7th Earl of Shaftesbury

2- ديفيد هيوم (1711 – 1776م) (David Hume)، فيلسوف واقتصادي ومؤرخ اسكتلندي وشخصية مهمة في الفلسفة الغربية.

بشكلٍ عام في فرنسا في بدايات القرن السابع عشر، وخلال فترة وجيزة أقبل منظّرو الأخلاق البارزون وغيرهم من الكتّاب على هذه الفكرة وتناولوها في دراساتهم المعمّقة حول طبيعة الإنسان (1).

يعود نشوء الإنسان الحداثوي إلى أواخر القرن الثالث عشر، وتتمثل صورته المثاليّة بالفرد البرجوازي. أمّا الصورة المثاليّة للفرد البرجوازي فقد انبثقت طوال المدّة من القرن الرابع عشر حتّى القرن السادس عشر وهيمنت على كلّ جوانب حياة الأفراد في المجتمعات الحديثة، وقد شرعت الجهود الفكريّة منذ بدايات القرن السابع عشر لتبرير هذه الهويّة، بل تمجيدها. من هنا تحوّل «هوى النفس» إلى قضيّة ممدوحة، وأصبح الخضوع لهوى النفس أمراً معقولاً ومطلوباً. ومع صعود نجم النظام الرأسمالي إبّان القرن السابع عشر تبلورت هذه الرؤية وصُرّح بها في النصوص الفكريّة، وأمسى «جوهر هوى النفس» يُعرَّف في سياق الحديث عن المنفعة الاقتصادية المنشودة (2). ومن هنا بات الإنسان الحداثوي يتباهى بكونه حيواناً اقتصادياً داعياً لجني الأرباح وتحقيق المنفعة، وأنّه «إنسان يتبع المال» (حتّى إنْ أدّى ذلك إلى تجرّده عن الإنسانيّة). بهذا نشأ نظام أخلاقيٌّ يعدّ الأنانيّة والنفعيّة والربح غير المشروع وغير المُنصِف أمراً مقبولاً؛ وليس هذا فحسب، بل يعدّه أمراً معقولاً ومطلوباً، معرّفاً الحقيقة الإنسانيّة بهذه الخصال والخصائص النفعيّة والربحيّة. إنّ الإنسان من منظور العالم الغربيّ هو تجسيدٌ ل-«النفس الأمّارة»، وإنّ العقل والإرادة يتبعانها، بل يتعدّيان ذلك ويصبحان عين شهوات النفس الأمّارة (وفي مقدمتها شهوة المال والربح في

1- آلبرت هيرشمن، هواهای نفساني ومنافع، ص26.

2- روبرت هايلبرونر، بزرگان اقتصاد، احمد شهسا، انتشارات آموزش انقلاب اسلامی، ص16.

الإطار العلماني – الإنسانوي، ومن ثمّ الشهوة الجنسيّة المشروعة وغير المشروعة وغير المحدودة). وقد صرّح بذلك «ديفيد هيوم»– الفيلسوف الانجليزي في عصر الظلمات، أو العصر الذي يُطلَق عليه «عصر التنوير» – إذ يقول: «إنّ العقل هو ستارة الأهواء النفسيّة (الشهوات)، ويجب أنْ يكون كذلك»(1).

إنّ النفعيّة غير المحدودة وغير المقيّدة بشرط وغير المشروعة (النفعيّة العلمانيّة الإنسانويّة) هي ظاهرة جديدة ظهرت في التاريخ الغربي، ولم تكن لها أيّ سابقة في سائر الحضارات القديمة ولاسيما الشرقيّة منها وغير الحداثويّة. يقول روبرت هيلبرونر (2) بهذا الصدد:

إنّ هذه النفعيّة وهذه الفكرة القائلة: «على الجميع البحث عن الطرائق الكفيلة بتحسين وضعه المادّي»، هي فكرة لم تكن موجودة لدى الطبقات الدنيا والوسطى في المجتمعات البشرية القديمة كالمصريّة والإغريقيّة والرومانيّة. فضلاً عن ذلك فإنّ هذه الفكرة لم تكن موجودة أيضاً في القرون الوسطى الأوروبيّة، بل ظهرت واتسعت خلال عصر التنوير وانتشرت طوال فترة الإصلاحات في حين يمكن تأكيد غيابها في المجتمعات الشرقيّة. إنّ هذه الظاهرة الاجتماعية البارزة في كلّ مكان هي ظاهرة جديدة وتشبه حرفة الطباعة من حيث حداثتها (3) .

إنّ نشوء مفهوم «المنفعة أو الربح» من المنظور العلماني والإنسانوي هو من نتاجات الغرب الحداثوي. فكمّا جرت الإشارة

1- اي.ك.هانت، تكامل نهادها و ايدئولوژى هاى اقتصادى، سهراب بهداد، آگه، 1381ه-.ش، ص 17 و 18.

2- (م2005 – 1919) Robert L. Heilbroner ، كاتب ومنظّر اقتصادي أمريكي شهير.

3- آلبرت هيرشمن، هواهاى نفسانى و منافع، ص46.

لم يكن للفكرة أيّ حضور أو هيمنة قبل عصر الحداثة، بل على العكس تماماً، إذ كانت تُقَبّح بشدّة كلّ محاولة في كنز المال والأرباح بالطرق غير المحدودة وغير المشروعة (1)، وكان يُعَبَّر عن ذلك بأسوء الأهواء النفسيّة وفي مقدمة الذنوب الكبيرة (2).

ب- نشوء الإقتصاد الرأسمالي الحداثوي

إنّ الليبرالية الكلاسيكية وغيرها من صور الليبرالية هي الأيديولوجية الخاصّة بالنظام الرأسمالي، وتمثّل فكر الطبقة الرأسماليّة. إنّ الليبرالية بكافّة أقسامها (الليبرالية الكلاسيكية، والليبرالية الجديدة، والليبرالية الديمقراطية ذات الطابع الاشتراكي) هي للذود عن مصالح الطبقة الرأسمالية العلمانية، وتتصدّى وتقارع كلّ فكرة أو نظريّة تخالفها في الأسس والمتبنيات.

ما هو النظام الرأسمالي الحداثوي؟ قبل الخوض في الحديث عن النظام الرأسمالي يجب أنْ نؤكّد على أنّ (النظام الرأسمالي العلماني - الإنسانوي - الحداثوي) يتفاوت في ماهيته مع سائر الأنظمة الدّاعية إلى كنز المال، إذ أنّ «رأس المال» هومفهوم يختلف عن مفهوم «الثروة». إنّ مفهوم «رأس المال» هو واقع اقتصادي واجتماعي ينتمي إلى عصر الحداثة، وبعبارة وجيزة يمكن أنْ نقول بأنّ رأس المال هو الوجه الاقتصادي للذاتانيّة (Subjectivism) والإنسانويّة (Humanitarianism). إنّ ثروة الحُكّام والملوك والعصور السابقة للحداثة على عظمتها لم تُعَد «رأسُ مالٍ». إن

1- هارولد لاسكي، سير آزادی در اروبا، ص 26،27،28،30، 31و36

2- ينظر: تقرير مفصّل حول الحياة الثقافية والفكرية في عصر التنوير: /Breisach, Ernest/ Renaissance Europe: 13001517- New York: Macmilan/1973

رأس المال تكوّن في عالمٍ اتخذ من استقلاليّة الذات البشرية محوراً وأساساً، وأصبح – أي رأس المال – الوجه الاقتصادي للحداثة، مثلما تكوّن النظرية الميكيافيليّة (1) الوجه السياسي للحداثة. بعبارة أخرى لا يمكن أنْ نطلق على أيّ ثروة مفهوم «رأس المال». إن رأس المال هو ثروة سيّالة لتحقيق غايات النزعة النفعيّة، وإن قيمته هي في اعتماده لكنز المزيد من المال، ومن ثمّ جني المزيد من الأرباح من خلال استثمار الموارد الطبيعة والإنسانيّة وكلّ ما هو متاح في هذا العالم. إنّ رأس المال من خلال هيمنته على العالَم والإنسان، وباعتماده قوّة داخليّة تتمثّل بالطمع والجشع اللامتناهيين، يصنع لنفسه مسارات توصله إلى غاياته النفعيّة ومشاريعه التي تهدف إلى جني الأرباح من دون الاكتراث بأي مبدأ ديني أوحكم شرعي أو أخلاقي، ويستمرّ بكنز المزيد من الأموال وبلا انقطاع.

إنّ محفّز رأس المال الرئيس في هذا المسار هو النفعيّة الإنسانويّة، (لا الربح المحدود والمشروع والأخلاقي الذي أقرّته الشريعة الإلهيّة)، وإنّ رأس المال يجسّد العلاقة الإنسانويّة الذاتانيّة الموجودة بين الإنسان والعالم في الوجه الاقتصادي. ولأنّ رأس المال يتبع النزعة النفعيّة غير الشرعيّة، ولأنّه يتخذ من استثمار الموارد الطبيعية والإنسانيّة بصورةٍ هدّامة (وليس بصورة عقلانيّة) فسيكون افتقاره للشرعيّة موجوداً في ذاته. إن رأس المال هووجه اقتصادي طاغ على الإنسان الحداثوي (الذي يعرّف نفسه موضوعاً نفسانيّاً، وإن حقيقته الوجوديّة هي النفس الأمّارة). وبعبارة أخرى إنّ

---

1 – Machiavellism، المكيافيلية أوالقناع المكيافيلي، وفقاً لتعريف قاموس أوكسفورد الإنجليزي، هي «توظيف المكر والازدواجية (الخداع) في الكفاءة السياسية أوفي السلوك العام»، ومصطلح يعبّر عن مذهب فكري سياسي أو فلسفي يمكن تلخيصه في عبارة «الغاية تبرر الوسيلة» وينسب إلى الدبلوماسي والكاتب «نيكولو مكيافيلي» الذي عاش في عصر النهضة الإيطالية.

رأس المال هو الوجه الاقتصادي للنفس الأمّارة البشريّة، إذ تأصّل وهيمن وتسلّط في إطار النزعة الرأسماليّة في العالم الحداثوي.

إن النظام الرأسمالي مبنيٌّ على مبدأ «أصالة رأس المال»، وسيطرته على كلّ شيء. إنّه نظام اقتصادي – اجتماعي بنزعة إنسانويّة، إذ نشأ في بدايات القرن الرابع عشر الميلادي (وحسب رأي بعض المؤرخين فى أواخر القرن الثالث عشر)، وتحوّل طوال بضعة قرونٍ إلى النظام الاقتصادي المُيهمن على العالَم. على الرغم من أنّ الثروة وكنز المال كانا أمراً متداولاً قبل عصر الحداثة، ولكنّ ما كان للمبادىء الرأسماليّة أيّ وجودٍ قبل عصر الحديث، فهي – أي هذه المبادىء – من نتاجات العالم الغربي الحداثوي ومن صلب ذاته الإنسانويّة. ولأنّ النظام الرأسمالي خاضعٌ ليهمنة رأس المال (بمعناه الحداثوي)، لذا فسيكون نظاماً استثماريّاً منتهكاً وعلمانيّاً وغير عادل. إنّ غلبة المنظور الربحي المُعَلْمَن والإنسانويّ في النظام الرأسمالي، وكذلك توجهه الاستثماري الذاتي يتبلور في علاقاتٍ اجتماعية واقتصادية غير عادلة، وكلّما تكاثَرَت أرباح أصحاب رؤوس الأموال أصبح سائر أفراد المجتمع أشدّ فقراً، ويتخبّطون في بؤس وعوزٍ أكثر من قبل. إنّ الظلم والعلاقات المبنية على تهميش بعض الفئات هي من الصفات الذاتية في الرأسماليّة والملازمة لها، فمن دونها ما كان للإنسان الحداثوي أنْ يظهر للوجود، ولَما هيمنت النزعة النفعيّة الإنسانويّة العلمانيّة، ولَما نشأت الرأسماليّة أصلاً. إنّ الرأسماليّة الحداثويّة، ورأس المال نفسه يمثّلان تجسيداً للرؤية الإنسانويّة، ولذلك يتصفان بمعارضتهما للدين والتدين والعالَم الديني. يقول «هارولد لاسكي» حول نشوء الرأسماليّة الحداثوية في الغرب:

ص: 28

كانت طريقة التفكير الرأسمالية مترسّخة في الأذهان وبشكلٍ ملحوظ إبّان القرن الرابع عشر الميلادي، ولذلك تولّدت نزعة كنز المال والثروات وأصبحت الحافز الرئيس للنشاط البشري. قبل هذه الفترة وتحديداً في القرون الوسطى كانت القواعد الأخلاقيّة التي يروّج لها رجال الدين عاملاً في تقييد نزعة كنز المال. ولكن تضاءلت قوّة هذه المحددات بعد عام (1500م). الملحَظ المهم في هذا السياق هو أنّ أثر نزعة «كنز المال» قبل القرن الخامس عشر لم تهيمن مطلقاً على فكر الأفراد. لم يُعَد كنز المال [رأس المال] قبل هذه الحقبة سبباً لمشروعية سلوك الأفراد وأحقّيته، بل كانت الأعمال تقيَّم وفق أصول وقواعد أخلاقيّة، وكانت الأصول الأخلاقيّة مقدّمة على الأصوال الاقتصادية. لقد كانت المُنتِج خلال القرون الوسطى في نشاطاته الاقتصاديّة كافّة (كالتجارة والصناعة) يراعي الأصول الأخلاقيّة ليضفي الشرعيّة على نشاطه. بالطبع كان يحقّ للفرد بأنْ يسعى لتحقيق راحته وسعادته، ولكنْ كان عليه تحقيق ذلك وفق القواعد الأخلاقيّة، فمثلاً ما كان مسموحاً له بأنْ يحدد سعر بضاعته بناءً على نسبة العرض والطلب، وما كان يستطيع تحديد الأجور بحسب قيمة العمل الحقيقية. لقد كانت ساعات العمل وجودة المُنتج وطريقة البيع وآلية الربح تابعة لأصول ومبادىء أخلاقية كان على الفرد مراعاتها لينال السعادة الروحيّة والمعنويّة. لقد كانت هذه الأمنيّة من الأمور المتعارَف عليها في القرون الوسطى، إذ على الفرد مواءمة أفعاله وسلوكياته في هذا العالم الفاني مع تلك المبادئ والأصول المعنويّة لينال سعادةً أسمى وفلاحاً في العالم الأخروي. إنّ كنز الثروات (جمع رأس المال/ جمع الأرباح غير المشروعة) يتعارض مع هذه المبادىء. لقد كانت الثروات الماديّة

في القرون الوسطى بمثابة ثروة المجتمع ورأس ماله، إذ لم يكن الفرد هو المالك الحقيقي، ولَم يستغلّ الثروة من أجل راحته فقط، ولم تنحصر همومه بتحقيق المنفعة الشخصيّة، بل كان يعدّ ما عنده ملكاً للمجتمع، ويعدّ نفسه أميناً على ذلك. وبهذا كان الفرد يحدد نفسه من جهتين: مرّةً من جهة صرف المال الذي حصل عليه، وثانيةً من جهة الطرائق التي يكسب بها هذا المال. كانت هذه القضيّة هي التي تشكّل أساس الأخلاق الاجتماعيّة في القرون الوسطى. ولكن انحسرت هذه الرؤى والتوجهات بالتدرّج مع صعود الرأسماليّة واستبدلت نظرية «الملكيّة الجماعيّة » بنظرية «الملكيّة الفرديّة»، وغاب الاعتقاد بوجود قوّة إلهيّة ناظرة على أعمالنا وسلوكياتنا الفرديّة، وتبلورت رؤيةٌ تفيد بأنّ كلّ عملٍ عندما تكون فيه منفعة فإنّه مشروع... لم يكن للرأسماليّة أيّ حضور في الثقافة السائدة في القرون الوسطى، ولذلك ارتأت الرأسماليّة أن تخلق مناخاً فكريّاً وثقافيّاً يتلاءم مع آرائها وتوجهاتها. لا شكّ في أنّها فعلت ذلك بكلّ هدوء وصمت ولم تنجح إلّا بعد مضيّ ثلاثة قرون، وبعد أنْ تمكّنت من رفع الحواجز. كانت الرأسماليّة تحاول أنْ تسجّل حقّاً لرأس المال، وأنْ تصونه من تدخّل أيّ قوّة خارجيّة. وبهذا أصبحت الرأسماليّة في ذاتها نظريّة فلسفيّة، وإنّ المؤمنين بها لا يحتاجون إلى أدلّة من خارج منظومتها الفكريّة ليبرروا بها سلوكهم، ولذلك أصبحت الشؤون الفرديّة والسلوكيّات كافّة منطوية تحت مظلّة الرأسمالية المتمثلّة بكنز الأرباح والثروات. إنّ الحركة الاجتماعية التي قادت إلى إزالة النظام الاقطاعي وانتشار النظام الرأسمالي دحضت المنظور القائل بأن السعادة الاجتماعية تتحقق من خلال مراقبة أعمال الفرد من قبل المجتمع، وجلبت منظوراً جديداً يفيد بأن

السعادة الاجتماعيّة تحصل من خلال تحرير الأعمال والابتكارات والنشاطات الفرديّة من أيّ رقيب) (1).

مع ظهور النظام الرأسـمالي واتساع رقعته أصبحت الحاجة ملحّة لإنشاء نظريّة تروّج لهذا النظام وتدافع عنه. ومن هنا انتشرت البذور الأولى للآراء الليبراليّـة إبّان القرن السادس عشـر، وأينعت هذه البذور في تربة المدرسة الإنسانويّة الغربيّة، وظهرت في القرن السابع عشـر في آراء «جون لوك» [2] على شاكلة النظرية الليبرالية الكلاسيكية.

آراء الممهدين للنظرية الليبرالية

اشارة

كما جرت الإشارة آنفاً إنّ ماهيّة النظريّة الليبرالية الكلاسـيكية وكذلك الليبرالية ذات التوجه «الديمقراطي - الاشتراكي» و «الليبرالية الحديثة » منطبقة مع أسـس المدرسة الإنسانويّة. تعود أصول آراء المدرسة الإنسانويّة إلى كتابات «بيير دوبوا» (2)، و «مارسيليوس من بادوا»(3) و «فرانشيسكو بترارکا» (4)، و «جيوفاني بوكاتشيو» (5)،

1- عبدالرحمن عالم، تاريخ فلسفه سياسي غرب (از آغاز تا بايان سده هاى ميانه)، دفتر مطالعات سياسي وبين المللي، 1381ه-.ش، ص 295

2- Pierre Dubois كاتب ومفكر فرنسي (1255 - 1321م)

3- (1275-1342) ، Marsilius of Padua ، باحث إيطالي وشخصـية مهمـة في سـياسة القرن الرابع عشـر. تعد أطروحته السياسـية ديفنسور باسـيس أوحامي السـلام من قبل البعض الأطروحة السياسـية الأكثر ثورية في العصور الوسطى. من أهم أعماله كتابه الذي يناقش فيه سـلطة البابا الزمنيـة. وكان ذلك موضوعاً شائكاً طوال سـنين عديـدة في القرون الوسـطى. وقد جرّ عليه هذا الكتاب عداوة الكنيسة والبابا يوحنا الثاني والعشرين الذي رماه بالحرم الكنسي.

4- (1304-1347 - Francesco Petrarcaم) باحث إيطالي وشاعر وأحد أوائل الإنسانيين في عصـر النهضة. يسمى بترارك أحياناً كثيرة «أب الإنسانية».

5- (1313-1375 - Giovanni Boccaccioم)، كاتب وشاعر إيطالي وصـديق وطالب لبترارك، الذي بدوره أحد أهم إنسانيي النهضـة ومؤلف عدد من الأعمال البارزة

و «لورنزوفالا»(1)، و «نقولاس الكوزاني»(2)، و «بيكوديلا ميراندولا» (3)، و «مارسيليوفيسينو» (4)، و «نيكولومكيافيلي» (5)، و «مارتن لوثر »(6)، و «جان كالفن»(7)، و «دسيدريوس إيرازموس»(8) وغيرهم من الكتّاب والفكّرين. لقد تبلور في كتابات هؤلاء (خلال القرنَين الرابع عشر والخامس عشر) التعريف الإنسانوي للبشر، إذ انتشرت هذه النظريّة للتتكوّن روح الرأسماليّة وكلّ ما يلحق بها من سياسةٍ وأخلاق وآدابٍ وفنون. لقد روّج الكاتب الإنسانويّ الإيطالي في القرن الخامس عشر «ليوناردوبروني» (9)في كتابه (الإنسانويّة) المنظور المادّي والنهج الرأسمالي في كنز الأرباح واتباع الملذّات، كما فعل ذلك الكاتب المعاصر له «لورنزوفالا» من قبل، وقد قام « فرانشيسكوبتراركا» بذلك قبلهما بقرنٍ، إذ مدح في نصوصه جمع الأرباح والأموال. وفي القرن

1- (م1407-1457) Lorenzo Valla، خطيب ومعلّم إنسانوي إيطالي.

2- (م1401-1464) Nicholas of Cusa، نيكولا كوزايي أو نيكولاس كوسانوس، فيلسوف ولاهوتي ورياضي ألماني.

3- (م1463-1494) Giovanni Pico della Mirandola، فيلسوف، لاهوتي ومفكر إيطالي.

4- (م1433-1499) Marsilio Ficino، أحد الفلاسفة الإنسانيين الأكثر نفوذاً في أوائل عصر النهضة الإيطالية وأحد علماء الفلك ومحيي الأفلاطونية الحديثة وكان على اتصال مع كل مفكر أكاديمي وكاتب رئيسي في يومه، وكان أول مترجم لأعمال أفلاطون إلى اللغة اللاتينية. وكان صاحب أكاديمية فلورنسا التي كانت محاولة لإحياء مدرسة أفلاطون ذات تأثير كبير في اتجاه وفحوى عصر النهضة الإيطالية وتطور الفلسفة الأوروبية.

5- (م1469-1527) Niccolò Machiavelli، مفكر وفيلسوف سياسي إيطاليا إبان عصر النهضة.

6- (م1483-1546) Martin Luther ، راهب ألماني، وقسيس، وأستاذ للاهوت، ومُطلق عصر الإصلاح في أوروبا، بعد اعتراضه على صكوك الغفران.

7- (م1509-1564) John Calvin، مصلح ديني ولاهوتي فرنسي، مؤسس المذهب الكالفيني المنتشر في سويسرا وفرنسا و هومن القلائل من الفلاسفة الذين استطاعوا أن يطبقوا ما انتجه من الفلسفة.

8- (م1466-1536) Desiderius Erasmus Roterodamus، فيلسوف هولندي، من رواد الحركة الإنسانية في أوروبا، ومن الخدمات التي أسداها للتعليم علاوة على نشره الكتب التربوية اتصاله المباشر بالطلبة والمراسلات الشخصية وقد تناول في مؤلفاته معظم مظاهر التربية وقضاياها الهامة مثل الطريقة والمحتوى وآداب الطفولة وتعليم اللغة.

9- (1370-1444م)، كاتب ومفكّر ومؤرخ وسياسي إيطالي.

الخامس عشر نفسه كتب «بوجيوبراشيوليني » (1) في عام 1428 رسالةً في (الجشع)، مروجاً ومشجعاً للروح النفعيّة الحداثويّة. وقد تبعهم في ذلك الفيلسوف الإنسانويّ الإيطالي «ليون باتيستا ألبيرتي» (2) وروّج للروح الرأسماليّة، متناولاً إيّاها من جوانب أخرى.(3) وإنْ شئنا ذكر كلّ هذه الشخصيّات المهمّة والمؤثّرة فستطول القائمة. لذا رعايةً للاختصار نتناول في ما يلي وبشكلٍ موجز بعضاً من هذه الشخصيّات الفكريّة التي أثّر نتاجها لاحقاً في القرن السادس عشر في ظهور النظريّة الليبراليّة. وسنتناول بهذا الصدد الممهدين للنظرية الليبرالية (بدءً من 1300 م ولغاية 1600 م).

بي ير دوبوا

بي ير دوبوا (المولود في سنة 1255م والمتوفى سنة 1321م) هو مفكّر سياسي وحقوقي فرنسيّ. كان دوبوا مستشاراً قانونيّاً ومنظّراً سياسيّاً في بلاط الملك الفرنسي «فيليب الرابع»(4)، ويمكن أن نعدّ آراءه السياسيّة والقانونيّة من أقدم الآراء التي أنتجها الفكر السياسي الغربي في العصر الحديث وفي ظلّ حكومة ملكية مطلقة؛ (وهنا

1- (م1459 -1380) ، Gian Francesco Poggio Bracciolini ، إنسانوي من بدايات عصر النهضة الإيطالية. نجح في استرداد عدد كبير من النصوص اللاتينية الكلاسيكية حيث كان أغلبها طي النسيان في مكتبات الرهبانية الألمانية والفرنسية ونشر نسخاً مخطوطة بين المتعلمين.

2- (م1472 - 1404) ، Leon Battista Alberti ، مهندس معماري وعالم رياضيات وشاعر إيطالي ، إنسانوي، كما كان أيضاً مختصّا بعلم التشفير، فهو لغوي وفيلسوف وعالم آثار وموسيقار، ويعد أحد أكثر الشخصيات متعددة الجوانب الفنية في عصر النهضة. كثيرا ما يعرف باسمه الأول ليون، وخاصة في اللغات الأجنبية.

3- اتش، اي، بارنز، وهري بكر، تاريخ انديشه اجتماعي، ج 1، جواد يوسفيان وعلي اصغر مجيدي، اميركبير، 1389ه-.ش، ص 333 و 334.

4- (م1314 - 1268) ، Philip IV of France، تتحت حكمه، بلغت مملكة فرنسا أوجها السياسي والاقتصادي في القرون الوسطى. كانت فرنسا بسكانها البالغين البالغة آنذاك 13 مليون نسمة، أكبر الدول المسيحية سكاناً ويعتبر المؤرخون فيليب الرابع أول ملك يرسي دعائم دولة حديثة بسلطة مركزية قوية، معتمدا على مجموعة من المستشارين الذين كانوا يسمون آنذاك بالقانونيين.

يجب ألّا ننسى أنّ أوّل نموذج للدولة الحديثة في الغرب الحداثوي هو الدولة المطلقة).

كان دوبوا من أشـدّ المناوئين للكنيسة الكاثوليكية، وكان من مروّجي النموذج الفرنسـي للعلمانيّة (1) ومن دعاة هيمنة الملك على الكنيسة ومن المطالبين بإجراء إصلاحات برجوازية في الأراضي الزراعيّة.

قد لا يمكن أنْ نطلق على دوبوا عنوان (الليبرالي) بصورةٍ دقيقة، إذ لم تتبلور في القرن الرابع عشـر البيئة المناسـبة لنشوء الليبرالية، ولا يمكن البحث عن هذه المدرسة الفكريّة في هذه الفترة)، ولكن «النظريّة الليبرالية الكلاسـيكية» قد أعادت لاحقاً بعض جوانب أفكاره وآراءه. فعلى سبيل المثال كانت رؤيـة دوبوا المناوئة للكنيسة، ومطالبته بتحديد صـلاحياتها، وكذلك جهوده لإرساء نظام قانونيّ دوليّ معلمَن ومحاولاته في إيجاد تغييرات علمانيّـة في النظام القضائي لإزالة طابعه الديني، أو تأكيده تقويض أسـس الاقتصاد الإقطاعي، كلّ ذلك هي من القضايا التي تطرحها الليبرالية الكلاسـيكيّة، وكذلك الثورات الليبرالية. على الرغم من أنّ «بي ير دوبوا» لم يُعَد من منظري الليبرالية الرئيسين، ولكنّ لا شكّ في أنّ آرائه القانونيّة والسياسيّة ساهمت في توجيه البوصلة الفكريّة على مدى ثلاثة قرون لاحقة، لتنتهي إلى النظرية الليبرالية.

كان دوبوا عـدوّاً لدوداً للمسـلمين، وكان يفكّر دوماً في كيفية الاستيلاء على بيت المقدس (الذي لم يكن تحت هيمنة الصـليبيّن في القرن الرابع عشر)، وقد قدّم بهذا الصدد خططاً عديدة لتنصير

1- Laïcité أو French secularity أي العلمانيّة الفرنسيّة.

المسلمين الشرقيّين، وللحدّ من نفوذهم وتقليل أعدادهم، وإطلاق حملات التبشير ونشر المسيحية، (التي أصبحت في ما بعد من الأساليب الخاصة لتوسيع المستعمرات). ومن الخدَع التي استعملها بهذا الصدد الاعتماد على الاغرائات الجنسيّة، إذ اقترح تدريب مجموعة من النساء الأوروبيّات ليتمكنّ من اغراء الرجال المسلمين الشرقيين والزواج بهم، ولاسيما رجال الدين المسلمين، ليتحوّلوا تدرّجاً إلى الديانة المسيحية. ومما قيل في هذا الموضوع: (إنّ دوبوا كان يقول درّبوا مجموعة كبيرة من ذوات الجوراب الأزرق (كناية عن الفتيات المسيحيات الأروبيات) ليتزوجن برجال الدين الشرقيين. بعد الزواج يستطعن تنصير الشرقيين وتحويلهم للمسيحية) (1).

مارسيليوس من بادوفا

مارسيليوس (المولود في عام 1270 والمتوفى في عام 1343 للميلاد) كان من أهالي مدينة «بادوفا» (2) في إيطاليا. درس في الكنيسة وتعلّم الطب، وأصبح رئيسا لجامعة باريس مدةً من الزمن، وعيّنه البابا (يوحنا الثاني والعشرون) (3) قاضيّاً شرعيّاً في كنيسة بادوفا. كان مارسيليوس (الذي يُعرَف أيضاً ب–«مارسيليوالبادافي») يستلهم آراءه الفلسفيّة من كتابات «ابن رشد»، وكان يرى – كسائر المتأثرين بابن رشد المعاصرين له – إمكانية قيام دولة غير دينيّة تستطيع توفير سبل العيش الوفير والسعادة للأفراد، وكتب مع «جان جاندون»(4) وهو من

1– هري امرسون فازديك، مارتين لوتر، ت: فريدون بدره أي، شركت انتشارات علمي وفرهنكي، 1383ه–.ش، ص 4.

2– Padova، مدينة إيطالية بإقليم فينيتوشمال البلاد. أقرّ مواطنوها دستوراً في بداية القرن الحادي عشر، يتكون من مجلس عام أو جمعية تشريعية وهيئة تنفيذية (credenza).

3– Pope John XXII، (1244 – 1334م)

4– John of Jandun (1285 – 1323م)، كاتب ومفكّر سياسي فرنسي.

المتأثرين بابن رشد أيضاً كتاب «حامي السلام»(1). كان مارسيليوس من دعاة «الديمقراطية الإنسانويّة»، وتوجد في آرائه ملامح من النزعة الفرديّة والنفعيّة، الأمر الذي نعدّه تمهيداً مُمتدرّجاً لنشوء الليبرالية على الصعيد النظري.

إن القراءة التي قدّمها مارسيليوس عن الإنسان في بدايات القرن الرابع عشر أصبحت فيما بعد من أساسيات الرؤية الليبرالية للإنسان. لقد عرّف مارسيليوس حقيقة الإنسان في إطارٍ فرديّ ونفعي. يقول «بارنز» (2) و «بيكر» (3) في كتابهما المعنَون (Social thought from lore to science)

(4) حول الجوهر الليبرالي في قراءة مارسيليوس للإنسان:

«اتبع مارسيليوس طريقة الأبيقوريين (5) وبدت آرائه متشابهة مع آراء اللاحقين من أمثال «ميكيافيلي» و «هوبز» (6) و «بنثام» (7) في

1- Defensor pacis

2- (1889 – 1968م)، Harry Elmer Barnes، أستاذ في جامعة كولومبيا الأمريكية. متخصص بعلم التاريخ والاجتماع.

3- (1928 – إلى الآن)، Howard S. Becker، أستاذ في جامعة شيكاغو الأمريكية، ومتخصص في الفلسفة وعلم الاجتماع.

4- Social Thought From Lore to Science, two volumes, Heath, c. 1938, 3rd edition published in three. volumes, Dover, 1961

5- الأبيقورية أوالمذهب الأبيقوري يُنسب إلى الفيلسوف اليوناني أبيقور (340 ق.م – 270 ق.م)، الذي أنشأه وقد ساد ستة قرون، وهومذهب فلسفي مؤداه أن اللذة هي وحدها الخير الأسمى، والألم هووحده الشر الأقصى، والمراد باللذة في هذا المذهب – بخلاف ما هوشائع – هوالتحرر من الألم والاهتياج العاطفي.

6- (1588 – 1679م)، Thomas Hobbes، أحد أكبر فلاسفة القرن السابع عشر بإنجلترا وأكثرهم شهرة خصوصا في المجال القانوني حيث كان بالإضافة إلى اشتغاله بالفلسفة والأخلاق والتاريخ، فقيهاً قانونياً ساهم بشكل كبير في بلورة كثير من الأطروحات التي تميز بها هذا القرن على المستوى السياسي والحقوقي.

7- (1748 – 1832م)، Jeremy Bentham، عالم قانون وفيلسوف إنكليزي، ومصلح قانوني واجتماعي، وكان المنظر الرائد في فلسفة القانون الأنجلو – أمريكي. ويشتهر بدعواته إلى النفعية وحقوق الحيوان.

تناوله قضـية الفردانيّة والنفعية. فالأفراد – وفق رؤيته – يتعاونون أويتخاصـمون معاً وفقاً لعقولهم النفعيّة. يقول «آلن» حول آراء مارسـيليوس في النفعيّة والفردانيّة التي تخالف تماماً آراء باباوات الكنيسة ولاسيما آراء (1) «توما الأكويني» : إنّ هذا الرأي الذي ينقد بشدّة المسيحيين الأصـلاء في العصـر الوسيط يشبه رأي ميكيافيلي، وهوقريب من رأي هوبز. إنّه يترك الأساس الأخلاقي السامي وينتصر «للنفعيّة»، ولا يرى أيّ علاقة لثنائية الحقّ والباطل مع الحياة الأخرويّة، ولا توجد لها أيّ آصرة مع نظم الكون. (2)

إن مصدر السـلطة والقانون وفق قراءة مارسـيليوس هوالإنسان، وهذه رؤية إنسانويّة اعتمدها في تنظيم أفكاره وفي نقده للكنيسة الكاثوليكيّة. لـذا يمكن أنْ نعـدّ مارسـيليوس من روّاد النظريـة الديمقراطيـة ذات الطـابع الإنسانوي والعلمانيـة والإصـلاح الـديني وغيرها من المفاهيم الأساسيّة في النظريّة الليبرالية خلال النصف الأوّل من القرن الرابع عشر الميلادي.

نيكولو مكيافيلي

ولد مكيافيلي عام 1469 وتوفي عام 1527 للميلاد. تعود أصوله لمدينة فلورانسا الإيطالية، وجاءت شـهرته ب–«ميكيافيلي» بسـبب آرائه السياسية التي طرحها في نصوصه. فضلاً عن اشتغاله في الفكر السياسي فإنّه كان شاعراً ومسرحيّاً أيضاً، إذ تُعَدّ مسرحيته

1- (1225 – 1274م)، Saint Thomas Aquinas ، قسـيس وقـديس كاثوليكي إيطالي من الرهبانية الدومينيكانية، وفيلسوف ولاهوتي مؤثر ضمن تقليد الفلسفة المدرسية.

2- Sanders, Thomas, protestant concepts of church and state.Historical Backgrounds and App roaches for. the future,New York. Holt. Reinehart and Winston, p.p 82–85

(1) (ماندارك) من المسرحيات الكوميديّة الشهيرة في إيطاليا حتّى الآن، فهومن المؤثرين في السرد القصصي والنثر. إذ يمكن أن نعدّ ذلك دليلاً على اتّباعه لنهج «جيوفاني بوكاتشيو» الذي رسمه في الأدب الغربي خلال القرن الرابع عشر، وقد تطوّر لاحقاً في القرنين السابع عشر والثامن عشر وتبلور في إطار «الروايّة».

كان مكيافيلي مفكّراً حداثويّاً وأنموذجاً لطبيعة النفس البشريّة في الغرب إبّان عصر التنوير. إن الجانب السياسي هوالجانب الأنضج والأبرز في مجموعة نصوصه وآرائه، ويمكن أنْ نقول إنّ الفلسفة السياسيّة الميكيافيليّة (2) تمثّل الوجه الظاهري والباطني للسياسة الغربية الحديثة، وإنّ العُنف والرذيلة والخداع وحبّ الهيمنة الكامنة فيها تروي الجوهر الباطني والخفيّ في حقيقة السياسة التي تبنّتها الحداثة.

تحدّث مكيافيلي في كتابَيه «الأمير» (3) و «نقاشات حول ليفي» (4) عن الروح النفسانيّة في السياسة الحديثة، وينحاز تماماً للمنظور الحداثوي عن السلطة، متخذاً من ذلك أساساً لنظرته السياسية للعالم والإنسان.

كان مكيافيلي كاتباً علمانيّاً، وهومن أرسى قواعد النظريات

1- The Mandrake

2- المكيافيلية (Machiavellianism) أو القناع المكيافيلي (Machiavellian mask)، وفقاً لتعريف قاموس أوكسفورد الإنجليزي، هى «توظيف المكر والازدواجية (الخداع) في الكفاءة السياسية أو في السلوك العام»، وهو أيضاً مصطلح يعبر عن مذهب فكرى سياسى أو فلسفى يمكن تلخيصه في عبارة «الغاية تبرر الوسيلة» وينسب إلى الكاتب مكيافيلي.

3- The Prince

4- Discourses on Livy، كرس مكيافيلي كتاب الأمير لتقديم المشورة لحاكم الإمارة وبعبارة أخرى نوع الملكية بينما هدف كتاب نقاشات حول ليفي إلى تفسير بنية وحسنات الجمهورية وهو شكل من أشكال الحكم القائم على مستوى معين من القبول والسيطرة الشعبية.

السياسـية الحديثة بقراءته الحداثويّة عن السـلطة السياسـية، وهي قراءة تتمحور حول هيمنة النفعيّة ذات المنحى الإنسانويّ، وبهذا أصبحت السـلطة وفق المنظور الذي أرساه مكيافيلي حاضـرةً في السـجالات الفكريّة والأيديولوجية الحديثة كافّة بما فيها الليبرالية التي تُعد تحصـيلاً لآراء مكيافيلي، إذ تطرح النشاط السياسي في إطار المنظور الحداثوي لمفهوم السلطة (الذي بيّنه مكيافيلي).

إضافة إلى القراءة الجديدة لمفهوم السـلطة فإنّ مكيافيلي بلور قراءة جديدة وحداثوية أخرى تتناول مفهوم الحريّة، إذ تكون مبنيّة على نوعٍ من الهيمنـة الامبرياليـة، وإنّ هـذه القراءة الاسـتعمارية والاسـتثمارية لمفهوم الحريـة لـدى مكيافيلي هي من أسـس الدعوة للحرية التي تبنتها الليبرالية، إذ تبلور ذلك في الليبرالية الكلاسيكية وفي سائر الليبراليات.

مارتن لوثر وجان كالفن، البروتستانتيّة (1) والكالفينيّة (2) والبيوريتانيّة (3) .

---

1 – Protestantism، البروتسـتانتية هي أحد مذاهب وأشـكال الإيمان في الدين المسـيحي. تعود أصول المذهب الى الحركة الإصلاحية التي قامت في القرن السادس عشـر هـدفها إصـلاح الكنيسـة الكاثوليكيـة في أوروبا الغربية. وهي اليوم واحدة من الانقسامات الرئيسـية في العالم المسيحي.

2 – Calvinism، المذهب المسـيحي البروتسـتانتي الذي أسسه «جان كالفن». اعتقد الكالفينيون أن كالفن سار على خطى بولس الرسول والقديس أوغسـطين في تأكيد ما اعتبره سموالله وسيادته على كل شيء، وتتقاطع أفكاره مع أفكار مارتن لوثر في أن تبرير الخطاة والخلاص يحصـل عن طريق الإيمان فقط وليس بالأعمال. ولكن كالفن كان يعتقـد بالاختيار المسـبق، أي أن الانسان بعـد أن يخطئ لا يسـتطيع أن يمتلك الإرادة الحرة للتوبة، أما كل الذين سينالون الخلاص فإن الله كان قد سبق واختارهم قبل إنشاء العالم.

3 – Puritanism أو Puritan، تطهيريـة أو البيوريتانيـة، مـذهب مسـيحي بروتسـتانتي يجمع خليطاً من الأفكار الاجتماعية، السياسـية، اللاهوتية، والأخلاقية. ظهر هذا المذهب في إنجلترا في عهد الملكة اليزابيث الأولى وازدهر في القرنين السادس والسابع عشر، ونادى بإلغاء اللباس والرتب الكهنوتيـة. وتسـتند تعاليمهم إلى الإيمان بالكتاب المقدس مصدراً وحيداً للعقيدة الدينية من دون الأخذ بأقوال القديسـين ورجال الكنيسـة. تأثرت الحركـة التطهريـة في نشأتها بمبادئ العقيدة البروتسـتنتية ولاسـيما بتعاليم كالفن وتسـفنغلي وبولينغر حتى أطلق بعضهم على البيوريتانية اسم الكالفينية.

ولـد مارتن لوثر في ألمانيا سـنة 1483، وهوقسـيس وراهب مسـيحي رفع رايـة المخالفة والاعتراض ضدّ البنية الفكريّة والتنظيمية للكنيسـة الكاثوليكية في سنة 1517. كان لوثر ابناً لعائلـة ريفيّة فقيرة في ولاية ساكسونيا (1) في شـرق ألمانيا. قاد لوثر حركة الاحتجاج ضدّ الكنيسة الكاثوليكيّة، التي انتهت بانشقاق كبير في الكنيسة المسيحية، إذ أُسّست البروتستانتيّة في مقابل الكاثوليكيّة.

تعـدّ البروتسـتانتيّة المسـيحية قراءة إنسانويّـة لهذه الديانة، وتعتمد التراث اليهودي الموجود في التعاليم والأحكام المسـيحية. إنّ مارتن لوثر بحركته الاحتجاجيّـة التي انتهت بتأسـيس البروتسـتانتيّة، مهّـد – سواء عن قصد أومن دون قصد – لانتشار الرأسـمالية الحديثة والأخلاقيات والثقافة الرأسمالية ذات الطابع الإنسانويّ في أوربّا الوسطى والشماليّة، وبهذا يكون من المساهمين في إرساء قواعد الليبرالية. (2)

يرى هارولـد لاسـكي في سـياق حديثه عن العلاقة بين البروتسـتانتية المسـيحية ونشوء الليبرالية أنّ البروتسـتانتية ساعدت في تطور وانتشار الفلسـفة الليبرالية ولا شكّ في ذلك. كما يرى أنّ حركة الاصـلاح بتقويضـها سلطة الكنيسة الكاثوليكية أوجدت «فلسفة إلهيّة» جديدة تقوم بإحداث تغييرات واسعة النطاق في توزيع الثروات، ممهدة بذلك لنشوء دول غير دينية (علمانيّة). (3)

1- Saxony.

2- Nestingen, James, Martin Luther: Alife, Minneapolis, MN; Augsburg Books, 2005, P.112_114.

3- ر.ه-. تاوني، دين وظهور سرمايه داري، احمد خزاعي، نشر مركز، 1377ه-.ش، ص 145،142،141،140، 149

على الرغم من أنّ حركة مارتن لوثر لم تتميز بمنظومة فكرية منسجمة وواضحة المعالم، ولكنّ عمله انصبّ على خدمة التيارات الرأسماليّة الناشئة في العالم الحداثوي، ممهداً لنشر الأفكار النفعيّة (وفق ما تريده الليبرالية وتياراتها في القرن السابع عشر).

إنّ مارتن لوثر بمخالفته للكنيسة الكاثوليكية أصبح – عن قصدٍ أومن دون قصد – عاملاً لترويج الأخلاقيات ذات التوجّه الرأسمالي والعلماني، والنزعة الفردانيّة الليبرالية. فعلى الرغم من أنّ لوثر لا يعدّ منظراً أومفكّراً ليبراليّاً، ولكنّه مهّد لنشوء «الليبرالية» في القرن السادس عشر.

تشير بعض القرائن والأدلّة التاريخية إلى أن مارتن لوثر كان يهوديّاً متخفّياً (1) (اليهود المارانوس) (2) أي (اليهود الذين يتظاهرون باعتناق دين آخر غير اليهودية، بسبب الظروف المختلفة)، وفي كثيرٍ من المواطن كان يعجز عن إخفاء تعلّقه باليهوديّة، إذ كتب في عام 1523 كتاباً بعنوان (عيسى ولد يهوديّاً)، أثنى فيه على اليهود واصفاً إيّاهم ب–«شعب الله المختار»، وقد أفرط كثيراً في انحيازه لليهود حتّى تسبب بتوجيه انتقادات كثيرة له، مما جعله يشكومن انتقادات مخالفيه في كتابه آنف الذكر بقوله:

1– اليهود المُتخفّون هم اليهود الذين يتظاهرون باعتناق دين آخر غير اليهودية، بسبب الظروف المختلفة، ويظلون على دينهم في الواقع. تعود هذه الممارسة بشكل أساس في الأماكن والفترات الزمنية حيث تم اضطهاد اليهود أوتم حظر اليهودية، ما أدى إلى ظهور يهود يمارسون اليهودية في خفية. (م)

2– المارانوس مصطلح أطلق في الأصل على يهود شبه جزيرة إيبيريا الذين تحولوا إلى المسيحية طوعاً أوقسراً، والذين ظل بعضهم يعتنقون دينهم اليهودي سراً. عُرف المتنصرون في ذلك العصر أيضاً بالمسيحيين الجدد، والمتحولين، كما عرفوا بالعبرية بمصطلح الأنوسيم – أي المكرهين – وهو المصطلح الذي يفضل استخدامه أحفاد هؤلاء اليهود المتنصرين وبعض الباحثين، نظرا للدلالة المهينة التي تمثلها كلمة «مارانو» في اللغة الإسبانية حتى اليوم.

(إنّي أتحدّث مع الكاثوليكيين وكلامي موجّه إليهم. إذا تعبوا من وصفي بالكافر فبإمكانهم أنْ يسمّوني ب-«اليهودي») (1).

إنّ مارتن لوثر بطرحه الأفكار والآراء الداعية للإصلاح الديني، حَوّلَ البُنية التاريخية للديانة المسيحية لمصلحة اليهود. فمن خلال المقارنة بين آراء الكنيسة الكاثوليكيّة في القرن السادس عشر وآراء لوثر وغيره من المبلغين البروتستانتيين المسيحيين يمكن أنْ نقف على الأسس العقائديّة للمذهب البروتستانتي الذي يعتمد عقائد يهوديّة وينصبّ في مصلحة أصحاب رؤوس الأموال اليهود (الذين يشكّلون الفئة الكبرى لأصحاب رؤوس الأموال في الغرب منذ عدّة قرون)، وبهذا تكون البروتستانتيّة حلقة وصلٍ بين اليهوديّة والنظريّة الليبراليّة وذلك من خلال القراءة العلمانيّة والنفعيّة التي قدّمتها عن الإنسان والتعاليم الأخلاقية والعقائد المسيحية.

على الرغم من أنّ «البروتستانتيّة المسيحيّة» بدأت على يد مارتن لوثر، ولكنّها لم تقف عند آرائه ونهجه، بل تعدّت ذلك وتبلورت في آراء آخرين، يكون في مقدّمتهم «جان كالفن» الذي أرسى قواعد جديدة للبروتستانتيّة، ممهداً بذلك وبشكلٍ ملحوظ لانتشار النزعة الرأسماليّة والنفعيّة في المجتمع الغربي.

من هو «جان كالفن»؟ ولد كالفن في فرنسا عام (1509 م) في عائلة كاثوليكيّة. ولكنّه تحوّل للمذهب البروتستانتي اللوثري في عام (1533 م). بعد فترةٍ ذهب إلى «ستراسبورغ» (2) التي كانت

1- راين هارد كونل، ليبراليسم ت: منوتشهر فكري ارشاد، طوس، 1354ه-.ش، ص34.

2- Strasbourg.

مركزاً لمناصري المذهب البروتستانتي. ثمَّ ذهب إلى «بازل» (1) في سويسرا ونشر كتابه المعروف بعنوان «تأسيس الديانة المسيحيّة» (2) في عام (1536 م). من ثمّ أصبح كالفن بشكل متدرّج المنظّر الرئيس والمتحدّث باسم البروتستانتيّة في كلٍّ من فرنسا وسويسرا، إذ أسس في جنيف مدرسةً لترويج آرائه، وبمرور الوقت تحوّل مع أنصاره إلى السلطة الحاكمة في جنيف خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر. (3) كانت تعاليم كالفن متشدّدة، إذ كان يفرض على أتباعه ضوابط خاصّة ونوعاً من الزهد في نمط العيش. اللافت للانتباه هوأن زهد كالفن وأحكامه الصارمة قبل أنْ تكون لغرض الهداية وتنشئة الفرد الصالح والارتقاء المعنوي كانت لغرض ترويج الالتزام بالأعمال الدنيويّة التي يرافقها الزهد، وهذا ما كان متماشياً مع نزعة كنز الأموال والأرباح ورأس المال التي كانت السمة البارزة لحياة أصحاب رؤوس الأموال في القرنَين السادس عشر والسابع عشر.

لقد تمثّل الجمهور الرئيس للحركة الكالفينيّة بالطبقات العاملة في المجال التجاري والصناعي الذين كانوا بمثابة أحدث فئة اجتماعيّة وقتئذ. كان رجال الدين الكالفينيّون المتمركزون في جنيف وفي المدن التجاريّة الأخرى مثل «أنتويرب» (4) التي كانت مدعومة من مدن

1- Basel.

2- Institutes of the Christian Religion، من مؤلفات جون كالفن يعالج اللاهوت النظامي البروتستانتي. يُعد العمل ذات تأثير كبير في العالم الغربي ولا يزال يُقرأ ويُدّرس على نطاق واسع من قبل طلاب اللاهوت اليوم، نشر العمل باللغة اللاتينية في 1536 (في نفس الفترة التي حلّ فيها الملك الإنجليزي هنري الثامن الأديرة) وترجم إلى لغة «كالفن» الأم (اللغة الفرنسية) في عام 1541.

3- اعتبر كالفن الكتاب المقدس بأنه المرجعية الأولى ذات الشرعية والسلطة والتي يجب أن تخضع لها السلطات الأرضية، وقد نجح من خلال هذا الفكر بتشكيل حكومة ثيوقراطية في جنيف عرفت بنظامها المتشدد. (م)

4- Antwerp، كبرى المدن الفلمندية في بلجيكيا، ومركز مقاطعة تحمل اسمها وعصب الحياة الاقتصادية فيها

صناعيـة عظمى مثل لنـدن وآمستردام يوجهون خطابهم لهذه الفئات، وبطبيعة الحال كانت تعاليمهم تؤيّد رأس المال والأعمال المصـرفيّة والتجاريّـة الواسـعة وغيرها من شؤون الحياة اليوميّـة في تلك البيئة. بهذا أُسِّست مبادىء جديدة تتقاطع مع التراث الديني السابق الذي كان يوبّـخ السـعي للمنفعـة الاقتصاديـة والحصول على مـا هوغير ضـروريّ للعيش، وتبلورت آراءٌ مغـايرة عن الأفكار القديمـة التي كانت تعدّ الوسـيط والمرابي لصّاً... كانت الكالفينيّة في بادئ الأمر تسـعى لإدارة شؤونها الاقتصاديّة الخاصة بها، وكانت متشددة في ذلك، ولكنّها لم تبـدِ ضدّيـة مع سائر الغايات الاقتصاديّـة، ولم تعدّ أصـحاب رؤوس الأموال طبقة تتسـبب في بؤس الفئات والطبقات الاجتماعيّة الأخرى. أوأنّها ما عادت تعدّ الفقر في نفسه فضـيلة؛ فلعلّها هي المنظومة الفكريّة الدينية الأولى التي أقرّت بالأسـس الاقتصاديّة الحديثة وأثنت عليها ولـم تُعادِ عمليّـة كنز الأموال... وبهـذا أصـبحت الكالفينيّـة تمثّل البنيـة الأخلاقيّـة للمجتمع المـدني والتجاري الحـديث... إن مثل هـذه التعاليم، مع كلّ ما فيها من محاسن ومعايب دينيـة، اعتُمدَت لاحقاً كوسـيلة لتحرير الطاقات الاقتصادية وتدعيم الطبقة البرجوازية الناشـئة وتحويلها إلى قوة اجتماعيـة منضـبطة وفاعلـة... لذا ليس من الخيال إنْ قُلنا إنّ الخدمة التي قدّمها كالفن (وإنّ كانت بمسـتوى أقل، ولكنها بأدواتٍ لم تكن أقلّ ضـعفاً) للبرجوازيّة في القرن السادس عشـر هي الخدمة ذاتها التي قدّمها ماركس للطبقة البوليتايّة في القرن العشـرين. (1)

نظراً لموائمة تعاليم كالفن البروتستانتيّة لمبادئ الرأسمالية لذا واجهت ترحيباً من الرأسماليين الهولنديين في القرن السابع عشر،

1- Armestrong, Karen/ Holy War/ Mecmillian London Limited/ 198/ P.344

(نظراً لحضور التجّار اليهود الكبار في هولندا خلال القرن السابع عشر لذلك أصبحت وقتئذ مركزاً للرأسمالية الغربية) وأصبحت الرأسماليّة الهولندية من مناصري الكالفينيّة (1)، وعُرِفَت الثورة الرأسمالية الهولندية (خلال الأعوام 1556 – 1609) هي الثورة الحداثويّة الليبرالية الغربيّة التي حدثت بزعامة الرأسماليّة ذات التوجّه الكالفيني.

كانت لكالفن (كنظيره لوثر) ميول يهوديّة، ولاسيما أنّه كان يمجّدهم في كتاباته. إن التفسير الاقتصادي الذي يستخرجه كالفن من التعاليم المسيحية تضع هذه الديانة في إطار اليهودية. بعبارةٍ أخرى يعتمد كالفن قراءة يهوديّة للديانة المسيحيّة، ويؤسس منظوراً حداثويّاً لهذا الدين ليكون أكثر ميلاً لليهوديّة وأقرب للمصالح الرأسماليّة مقارنةً مع نظيره لوثر.

تشير القرائن التاريخية إلى أنّ الكالفينيّة مقارنةً مع سائر مذاهب البروتستانتيّة والإصلاح المسيحي (من قبيل البروتستانتيّة اللوثريّة أوالزوينكليّة (2) أوحركة الإصلاح في الكنيسة الانكليزية التي أسسها «هنري الثامن»، أوتعاليم الحركة التي عُرِفَت بتجديديّة العماد (3)) هي أكثر احتواءً للمضامين الرأسماليّة، وأكثر فائدة لمصالح أصحاب

1- نصير صاحب حق، بروتستانتيسم، بيوريتانيسم و مسيحيت صهيونيستي، هلال،1383، ص 35.36.37.

2- نسبة إلى حركة الإصلاح الديني التي تزعمها «هولدريخ زوينكلي» في سويسرا. (م1531 – 1484 Huldrych Zwingli)

3 – Anabaptism، تجديدية العماد أو الأنابابتست. حركة مسيحية إصلاحية، ظهرت في أوروبا في القرن السادس عشر على شكل جماعات متفرقة في ألمانيا وهولندا وسويسرا في فترة متزامنة مع بداية الإصلاح البروتستانتي. دعت هذه الحركة لعدم تعميد الأطفال لأنهم عاجزون عن الالتزام الديني أو على الإيمان بحرية، وطالبت في الوقت نفسه بتجديد معمودية البالغين سن الرشد، أي تعميدهم مرة أخرى في حال كانوا معمدين في طفولتهم.

رؤوس الأموال، وهذا نابعٌ من روحها اليهوديّة.

إنّ انحياز كالفن لليهود وتمجيده لهم جعل بعض المؤرخين يعدّه يهوديّاً متخفّياً (1)، إذ يرون أنّه كان يخفي دينه الأصلي لأسباب خاصّة. (2) يذكر لنا التاريخ أنّ المسيحيّة الكالفينية باقترانها مع أصحاب رؤوس الأموال اليهود جعلت مدينة آمستردام من أهم المراكز الاقتصاديّة في العالم خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، وإنّ أصحاب رؤوس الأموال الإنسانويين العلمانيين المنتمين للتيار الكالفيني في هولندا قادوا الحداثة الهولندية، وروّجوا قراءتهم الرأسمالية لنصوص التورات التي غلّفوها بالآراء البروتستانتيّة ذات التوجّه الكالفيني. إنّ مثل هذا المدّ الرأسمالي لم يقتصر دوره على استغلال الطبيعة والإنسان والقوّة العاملة في أوروبّا، بل راح يؤسس حملة استعماريّة لنهب ثروات سائر الشعوب في خارج أوربّا؛ الأمر الذي أدّى إلى أن يكون الموقع الأوليغارشي (3) لليهود في النظام الرأسمالي يتخذ طابعاً سلطوياً (4) أكثر من قبل، إذ تسلّط اليهود في آمستردام على إنتاج التبغ وتجارته وكذلك حرفة الطباعة والنشر وتجارة الماس. فضلاً عن ذلك فإنّهم (أي اليهود في آمستردام) كانوا خلال القرن السابع عشر مهيمنين على البورصة العالميّة وقتئذ،

1- Crypto-Judaism

2- استيون. اف. براون/ آيين بروتستان، ت:فريبرز مجيدي، نشر اديان، 1391ه-.ش، ص 61.

3- Oligarchy، أو حكم الأقلية هي شكل من أشكال الحكم بحيث تكون السلطة السياسية محصورة بيد فئة صغيرة من المجتمع تتميز بالمال أو النسب أو السلطة العسكرية. كلمة «أوليغارشية» مشتقة من الكلمة اليونانية: أوليغارخيا . وغالبا ما تكون الأنظمة والدول الأوليغارشية مسيطر عليها من قبل عائلات نافذة معدودة تورث النفوذ والقوة من جيل لاخر.

4 - Hegemony، نوع غير مباشر من الحكومة ذات السيادة الإمبراطورية حيث تمارس الدولة المسيطرة (Hegemon) القيادة الجيوسياسية على الدول المسيطر عليها باستخدام القوة بدل السيطرة العسكرية المباشرة.

ونالوا دوراً أكثر من قبل في إدارة الشركات المساهمة العملاقة في تلك الفترة (من قبيل «شركة الهند الشرقية الهولندية» (1) و «شركة الهند الغربيّة الهولندية» (2)) وحصلوا على أضعاف ما كانوا يحصلونه من نهب الثروات والمصادر الطبيعية المتوافرة لدى الشعوب الأخرى. إنّ الكالفينية بتأثيرها وترويجها الثقافة والأخلاقيات والتوجهات الرأسماليّة مهّدت بشكلٍ واسع لانتشار الرأسماليّة المهيمنة، ولعبت دوراً كبيراً في ترسيخ أسس النظريّة الليبراليّة الكلاسيكيّة.

أسس أتباع جان كالفن في بريطانيا في القرن السابع عشر حركة دينية عرفَت ب-«البيوريتانية» أوالتطهيريّة، فهي حركة إصلاحيّة في الديانة المسيحيّة اعتمدت آراء وتعاليم جان كالفن في بريطانيا، ومنحازة للديانة اليهودية أكثر من كالفن نفسه. لقد لعبت التطهيريّة دوراً كبيراً في صعود نجم «الرأسماليّة» في بريطانيا وأمريكا، ويتضح الأمر أكثر إذا عرفنا أنّ أقطاب الليبراليّة الرأسمالية في بريطانيا وأمريكا (من أمثال «جون لوك» و «أوليفر كرمويل» (3) و «جورج واشنطن» (4) و «بنجامين فرانكلين» (5)) الذين كانوا ينتمون لجمعيات ماسونيّة، كانوا من أتباع الحركة التطهيريّة.

يمكن القول إنّ التطهيريّة هي المذهب الرئيس لأغلب الليبراليين

1- Dutch East India Company.

2- Dutch West India Company.

3- (م1658 - 1599) ،Oliver Cromwell قائد عسكري وسياسي إنجليزي.

4- (م 1799 - 1732) George Washington، أول رئيس للولايات المتحدة (1789-1797)، والقائد العام للقوات المسلحة للجيش القاري أثناء الحرب الأمريكية الثورية، وأحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة.

5- (م1790 - 1706) Benjamin Franklin، من أهم وأبرز مؤسسي الولايات المتحدة الأمريكية. كان مؤلفا طابعا صاحب هجاء سياسي؛ عالم ومخترع ورجل الدولة ودبلوماسي.

الماسونيين خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر في كلٍّ من الولايات المتحدة وبريطانيا.

إنّ التطهيريّة (البيوريتانية) التي أسّست على يد «ويليام تيندال» (1) في بريطانيا متأثّرة إلى حدٍّ كبير بالديانة اليهوديّة. لقد وردت كلمة «البيوريتانية» في دائرة المعارف اليهوديّة كالتالي: إنّ «البيوريتانية» تعني التهويد على الطريقة الإنجليزيّة، وإنّ أسسها الأخلاقيّة تتفق تماماً مع تعاليم التورات. لقد أرسى قواعدها رجل كالفينيّ بروتستانتي يدعى «ويليام تيندال» وانتشرت في بريطانيا، وهي فرع من فروع الكالفينيّة.

في الوقت الحاضر يمكن أنْ نعدّ البروتستانتيين الإنجليكيين في الولايات المتحدة (أتباع الكنيسة الأنجليكانية) امتداداً للتطهيريّة، ويقال إنّ السياسة الخارجيّة الأمريكية متأثّرة إلى حدٍّ بعيد بتعاليم التطهيرية. ولكنّ الأمر اللافت للانتباه هوارتباط التطهيريّة باليهوديّة. إنّ دائرة المعارف اليهوديّة تعرّف التطهيريّة في الفصل المخصص ب–«أنصار اليهود»، ولاسيما أنها (أي التطهيرية) تتضمن كاليهوديّة فلسفة دنيويّة غير أخرويّة، الأمر الذي ساهم بشكل واسع في ترسيخ الرأسمالية (Capitalism). إنّ هذا المذهب المناصر لليهود اتخذ من الثروة ركناً رئيساً في تنظيره ودعم عملية تأسيس النظام البرلماني وانتصر للطبقة البرجوازيّة الرأسمالية الناشئة، وقد ساهم من قبل في ترسيخ البروتستانتيّة ذات التوجّه الليبرالي وإنضاجها. إنّ تعلّق التطهيريّة باليهوديّة وانحيازها لها جعلها تسبق كلّ الحركات المناظرة

1- (1494 - 1538م)، William Tyndale باحث ومصلح انكليزي بروتستانتي في القرن السادس عشر.

لها في دعم اليهود. وفي حقيقة الأمر إن التطهيريّة ليست إلّا تهويداً بريطانيّاً، إذ إنها تطبق تعاليم التورات بكلّ دقّة، وأعطت ل-«القديس بولص» (الذي كان مؤسس التعاليم النصرانيّة لبني اسرائيل) مكانة مرموقة داخل هذه الحركة. إضافة إلى أنّ التطهيريين كانوا يساوون بين أنفسهم واليهود، فإنهّم اكتسبوا هويةّ يهوديةّ جديدة، وسمّوا أبناءهم بأسماء يهوديّة من قبيل «صاموئيل» و «عاموس» و «سارا» و «جوديت»(1).

إثْر ظهور «البروتستانتيّة» في الديانة المسيحيّة انتشرت واتسعت مذاهبها المختلفة في أرجاء أوروبا وأمريكا. إذ انتشرت تعاليم مارتن لوثر في شمال ألمانيا ووصلت إلى الدنمارك والنروج والسويد وفنلندا. أمّا أنصار «هولدريخ زوينكلي» فقد نشروا تعاليم زعيمهم في سويسرا ومناطق مختلفة في النمسا وهولندا. وفي عشيّة عام 1550 عُرفت الكالفينيّة بصفتها المذهب البروتستانتي الأشهر والأقوى في أوروبّا، إذ انتشرت في بعض أجزاء سوسيرا وهيمنت في «بازل» و «جنيف»، واتسعت رقعتها وصولاً إلى فرنسا وهولندا، ووجدت لها أنصاراً في أسكتلندا عن طريق أحد تلامذة كالفن والمسمّى ب-«جون نوكس» (2) . أمّا «ويليام تيندال» الذي كان كالفينيّا ومتخصصّاً بترجمة الكتاب المقدّس لم يعدّ الإصلاح الحداثوي في الكنيسة الإنجليزيّة كافياً، ودعا إلى إصلاحات أكثر وأوسع وانتهى إلى تأسيس مذهب عرف ب-«البيوريتانية» (التطهيريّة).

كان أتباع جان كالفن في بريطانيا يطالبون بالمزيد من

1- ر.اتش. تاوني، دين وظهور سرمايه داري، ص: 267، 266، 259، 258، 253.

2- (م1572 - 1514)، John Knox، مصلح ديني اسكتلندي وقائد حركة الإصلاح البروتستانتي، إذ كانت له اليد الطولى في نقل البلاد من الكاثوليكية إلى البروتستانتية.

الإصلاحات، وعملوا على تطهير الكنيسة، ومن هنا أُطلِقَت عليهم تسمية «ذوي الدين الطاهر» أوالتطهيريين (1) (Puritans) .

لقد تحوّلت التطهيريّة في بدايات القرن السابع عشر إلى مظلّة دينيّة وثقافيّة تجمع الأوساط اليهوديّة المتموّلة والرأسماليّة البريطانيّة ذات الأطماع الاستعماريّة. ولأنّهم كانوا يشعرون بالتقارب بين الكنيسة الكاثوليكيّة والإمبراطوريّة الإسبانيّة، راحوا يعتمدون شعارات الحركة التطهيريّة ذات المضمون الديني من أجل بسط إمكانات الإمبراطورية البريطانيّة الماديّة والمعنويّة ولترويج «الرأسماليّة» ودعم السياسات الاستعماريّة البريطانيّة وبالتالي دحر الإمبراطوريّة الإسبانيّة الكاثوليكيّة.

كانت الطبقة الرأسماليّة العلمانيّة في بريطانيا متآلفة مع الأوليغارشيّة اليهوديّة، وقدّمت نفسها من دعاة المسيحيّة من خلال ترويجها تعاليم المذهب التطهيري، وبهذا النهج استطاعت أن تستقطب العواطف الدينية وتحفّز الطبقات الدُنيا العاملة في مجال الزراعة والصناعة للهجرة إلى القارّة الأمريكيّة، متخذةً من البيئة الجديدة (أمريكا) مكاناً بكراً لترويج تعاليمها دعماً للشركات الرأسماليّة في أرجاء هذه القارّة، ولتصبح الأخيرة بعد ذلك تحت هيمنة الرأسماليّة اليهوديّة المدعومة من التيار التطهيري الديني. إن مثلث التطهيريّة والماسونيّة والرأسماليّة في الأرض الجديدة التي عُرِفَت لاحقاً ب-«الولايات المتحدّة الأمريكيّة» كان تحت قيادة الأوساط الأوليغارشيّة اليهوديّة، وهم من مهّدوا الأجواء لنشوء

1- ماكس فيبر، اخلاق بروتستانتي وروح سرمايه داری، عبدالكريم رشيديان، بريسا منوتشهري كاشاني، شركت انتشارات علمي وفرهنكي، 1373ه-.ش، ص:184،176، 189، 190.

«الجمهوريّة الماسونيّة والرأسماليّة»، أي (جمهورية الولايات المتحدة). لقد كانت الليبرالية الكلاسيكية بمثابة الأيديولوجية الأولى للرأسماليّة الماسونيّة اليهوديّة، ومثّلت التطهيريّةُ (بمختلف تفرعاتها) الوجه الديني المطلوب لليبراليّة الكلاسيكيّة، بل يمكن القول مثّلت الوجه الديني الأنسب لليبرالية وللطبقة الرأسمالية الحداثويّة والاستعمار العابر للحدود.

يقول «تاوني» (1) في أهميّة التطهيريّة في بريطانيا:

(إنّ نشوء التطهيريّة وانتصارها هوالتحوّل الأبرز والأهم في القرن السابع عشر، فإنّها تمثّل الحركة الإصلاحيّة الدينيّة الواقعيّة في بريطانيا، وتفوق من حيث الأهميّة حادثة انفصال الملك ثيودور (2) من كنيسة روما، فبصمودها ونضالها تحررت بريطانيا من النظام القديم وأصبحت حداثويّة... يرى ناقدٌ مخالف بهذا الصدد أنّ «السبب الرئيس لنشوء التطهيريّة هي مدينة لندن (بؤرة هذه العصابة المثيرة للفتن)، وذلك من خلال تجارتها (الاستعماريّة) والعالميّة التي عمّت المملكة البريطانيّة. إنّ السلع المصنوعة في لندن تنقل هذا الداء المتفشّي لسائر المدن وتنشره بين مختلف الفئات الاجتماعيّة، وبهذا سمَّمَت مدن ومحافظات بأكملها». وفي لانكشر (3)، المدن المتخصصة بصناعة النسيج، كانت بمثابة الجزر الحاضنة للتطهيرية في بحر الكاثوليكيّة الرومانيّة الذي كان يحيط

1- (1880 - 1962م) Richard Henry "R. H." Tawney، متخصص بريطاني في التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

2- أي: هنري الثامن (Henry VIII) الذي لعب دوراً هاماً في انفصال كنيسة إنجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية.

3- Lancs، من المقاطعات التاريخية في إنجلترا، برزت خلال الثورة الصناعية كمنطقة تجارية وصناعية.

بكلّ شـيء. كما أغلب الشـركات التجاريّة التي كانت عُشّاً لمثيري الفتنة. أما بؤسنا الراهن فإنّه ناشئ من متاجر هؤلاء الكسبة... فحتّى أفراد البلاط وطبقـة الأشـراف الساكنين في سائر المدن صاروا يخضـعون لهؤلاء للحصول على منحة أوقرضٍ ما، وأطلقوا عليهم تسـمية المرابين أومصاصي الدماء.

يستمرّ «تاوني» قائلاً: (إن النصوص التي كُتِبَت حول الرأسماليين المؤمنين بالتطهيريّة الذين كانوا يشتهرون بإقراض المال، كانت تُكتَب عن حقـدٍ وكراهيّـة، فمما قيل في ذلك هو: أنّهم كانوا يتهربون من دفع أي ضـريبة أوأيّ مالٍ آخر للكنيسـة وللملك والفقراء (الـذين يعدّهم ذوو المشـاعر المرهفـة سـادة أجلّاء ومن النبلاء). إنهّم كانوا يرفضون أيّ تنازلات أوضـرائب تشـمل أموالهم وعقاراتهم، ويتهربون من أيّ عقد أوحلفٍ يفرض التزاماً أووفاء للمصـلحة العامّـة. إنّ الآخرين يحترمونهم لسـلوكهم المادّي وتفكيرهم بعيـد المدى وبالتالي ينشـغلون بكلّ ارتيـاح بكنز الأـموال والثروات ومن دون أيّ متاعب ومتظاهرين بالـدين والتـدين. وكـذلك بهيمنتهم على الاقتصاد يثمنون العقار ويقنّنون السوق، وبسلطتهم التامة على المال يديرون المناصب العليا التي حصلوا عليها، وبهذا يوسعون بؤرهم المتمثلة بالشركات) (1).

إن التطهيريّة بصـفتها التيار البروتسـتانتي الأشدّ تطرفاً في مناصـرة اليهود قدّمت خدمة واسـعة للرأسـماليّة الإنسانويّة وللطبقة الأوليغارشيّة اليهوديّة، ولينتج من ذلك نشوء أحد أقسى الأنظمة الاقتصاديّة والاجتماعيّة في تاريخ البشريّة، المتمثّل بالرأسماليّة

1- جورج نافاك، فلسفه تجربه كرا از لاک تا بوبر، ت: برويز بابايى، انتشارات آزاد مهر، 1384، ص 9 و 10.

العلمانيّة الحداثوية المبنيّة على بحرٍ من الدماء والاستثمار والمشاق والفقر والمجاعة والظلم والحرمان في بريطانيا وفي العالم الغربي كلّه، وأخيراً في أرجاء العالم الخاضع لهيمنة الشركات الاستعماريّة الإجراميّة. لقد لعبت «التطهيرية» دوراً كبيراً في تحكيم هذا النظام الرأسمالي، فمنذ تشأتها كانت تدعوإلى الفردانيّة والنفعيّة والحريّة المبنيّة على هذين المفهومين، مما جعلها مقترنة بالليبراليّة الكلاسيكية. إن «جون لوك» الذي يعدّونه المنظّر الرئيس للنظرية الليبرالية كان تطهيريّاً. وإنّ «أوليفر كرمويل» الذي تزعّم أوّل ثورة (برجوازيّة ليبرالية) في انجلترا كان تطهيريّاً، إذ قاد هذه الثورة بمساعدة مجموعة من التطهيرين في البرلمان البريطاني خلال الأعوام (1649) حتّى (1657) . إنّ الثورة الليبرالية البريطانيّة في عام (1688م) التي عرفت ب-«الثورة المجيدة» (1) كانت في الواقع انقلاباً ماسونيّا مدبّراً قادَه مجموعةٌ من التطهيريين المتأثّرين بآراء «جون لوك»، واستطاعوا تتويج «ويليام اورانج» (2) ملكاً لانجلترا الذي كان بدوره تطهيريّاً منصّباً من قبل الجمعيات (الماسونيّة – اليهوديّة) المستقرّة في آمستردام، ولتكتمل بذلك الهيمنة السياسية لليبرالية والماسونيّة من خلال شعارات التيار التطهيري. ثمّة أمثلة مشابهة أخرى في بعض الأحداث السياسية التي وقعت قبل الثورة المجيدة، (مثل الثورة الهولنديّة)، أوبعدها الثورة الأمريكية، التي قادها ليبراليون تطهيريون منتمون لجمعيات ماسونيّة.

يقدّم «ماكس فيبر» (3) توضيحاً جيّداً حول العلاقة بين اليهوديّة

1- Glorious Revolution.

2- William of Orange أو William III، ويليام الثالث ملك انجلترا.

3- (م1920 – 1864)، Max Weber، عالم ألماني في الاقتصاد والسياسة، وأحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث ودراسة الإدارة العامة في مؤسسات الدولة.

والتطهيريّة والرأسماليّة الحداثوية، إذ يقول:

(كان الكتاّب في تلك الفترة [القرن السادس عشر والقرن السابع عشر] يعدّون جذور التطهيريّة، (ولاسيما جذورها في إنجلترا) «تهويداً إنجليزيّاً». إذا فهمنا قصدهم بالطريقة الصحيحة فيمكن أنْ نقول إنّهم لم يكونوا مخطئين. على الرغم من ذلك يجب ألّا نعدّ هذا الوصف للتهويد الفلسطيني، بل هوتهويد كان يعتمد تعاليم التلمود (1) الصارمة على مدى قرون طويلة. إنّ انتشار التيار التطهيري وقراءته لظواهر الحياة كان أكثر نفعاً وفاعليّة من الاقتصار على ترويج رأس المال وتجميعه. لقد دعمت التطهيرية نمط الحياة البرجوازيّة التي كانت هي الأكثر عقلانيّة من الجانب الاقتصادي. إنّ هذا الأمر هوالعامل الرئيس، بل الوحيد في تنمية هذه الحياة الجديدة، وبعبارة أخرى كان هذا التيار يواظب على مهد«الإنسان الاقتصادي» الذي ولِدَ توّاً. لا شكّ في أن التطهيريين أنفسهم كانوا يعلمون بأنّ الأهداف التطهيريّة كانت متأثرة وتابعة لوساوس الثروة والمال. إنّ أحد العناصر البنيويّة في الروح الرأسماليّة الجديدة، بل إنّ نمط الحياة العقليّة قد ولدت من الروحية النسكيّة والرهبانيّة المسيحيّة التي تبنتها التطهيرية. إنّ أسس ذلك المنظور الذي سُمّي بالروح الرأسماليّة تتواءم مع المضامين الرهبانيّة الدنيويّة في التيار التطهري) (2).

على الرغم من أنّ الليبراليّة الكلاسيكية كانت على علاقة وثيقة مع التطهريّة وتعاليمها خلال القرنَين السادس عشر والسابع عشر،

1- Talmud، كتاب تعليم الديانة اليهودية، وهو تدوين لنقاشات حاخامات اليهود حول الشريعة اليهودية.

2- Ball, T, Models of power, Journal History of the Behavioural scienes, 1996, p.35

وكانت تتفق مع دعوتها إلى العمل الاستثماري وكنز المال والربا والنفعيّة، ولكنْ واجهت هذه العلاقة الوثيقة فتوراً لافتاً إبّان القرن الثامن عشر ولاسيما في القرن التاسع عشر عشيّة المرحلة الأولى من الثورة الصناعيّة وانتاج السِلَع والحاجة إلى الاستهلاك والمستمر؛ الوضع الذي أدّى حدوث تغيير كبير في السلوك الاقتصادي المهيمن الذي تنشده الرأسماليّة بنسختيها الليبرالية الحداثويّة، والليبرالية ذات الطابع الديمقراطي الاشتراكي (إبّان القرن العشرين). لقد نتج من هذا التغيير انفصالاً عن التيار التطهيريّ، واقبالاً على المدارس الفلسفيّة كـ«الإلحاديّة» (1) و«الماديّة» (2) و«الربوبية» (3) و«اللاأدريّة» (4)، حتىّ إقبال على بعض القراءات الماركسيّة الإصلاحيّة (5)، وتغيّرت الثقافة الدينية والإطار الديني العام بالمقارنة مع الوضع السائد في أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر. ولكن هذا لا الأمر لايجعلنا أنْ ننكر الدور الكبير الذي لعبته التطهيرية في نشوء الليبراليّة الكلاسيكية وإسنادها في القرنَين السادس عشر والسابع عشر، وفي بعض العقود من القرن الثامن عشر.

1- Atheism.

2- Materialism.

3- Deism، مذهب فكري لا ديني وفلسفة تؤمن بوجود خالق عظيم خلق الكون وبأن هذه الحقيقة يمكن الوصول إليها باستخدام العقل ومراقبة العالم الطبيعي وحده دون الحاجة إلى أي دين.

4- Agnosticism، Agnostic atheism ، اتجاه او مذهب يعتقد ان وجود الله، اوكيان خارق للطبيعة اكبر من الانسان واعظم منه قوة غير معلوم ولا يمكن معرفة تفاصيله أو إثباته.

5- Revisionism.

الأسس الفلسفية لليبرالية الكلاسيكيّة

إنّ «الليبرالية الكلاسيكية» بصفتها نظريّة (علمانيّة – إنسانويّة) ناتجة من البُنية الفلسفيّة الإنسانويّة في الفكر الغربي، وتبلورت في إطار العقل الحداثوي النفعيّ. إنّ حقيقة الإنسانويّة (Humanism) تستبطن الأنانيّة والجشع، وإنّ الليبرالية الكلاسيكية كسائر النظريات الحديثة متجذّرة في الفلسفة الإنسانويّة. قد تبدوبعض النظريات الحداثويّة أقرب إلى مدارس فلسفية أخرى متفاوتة ومختلفة، فعلى سبيل المثال إنّ نظرية «القوميّة – الاشتراكية» نابعة من فلسفة «فيشتة» (1)، وقد تكون متأثرة في بعض الوجوه بموروث المدرسة «المثالية الألمانيّة» (2)، في حين أن الليبرالية الكلاسيكية تعود أسسهاالفلسفيّة للمنظور التجريبي. ولكن على الرغم من كلّ ذلك يمكن إرجاع كلّ هذه النظريات إلى باطن الفلسفة الإنسانويّة.

يمكن سرد الأسس الفلسفيّة للنظرية الليبرالية الكلاسيكية كالآتي:

* العقلانيّة التجريبيّة الحداثويّة الناتجة عن العقل الحداثوي (الإنسانوي). إنّ العقل الحداثوي الذي هوالأساس لكلّ فلسفة وتفكير في الغرب الحداثوي هوتجسيم ومصداق ل–«النفس الأمّارة». إنّ العقل الحداثوي يستبطن تضادّاً للعقل الحقيقي (العقل الديني)، فإنّه نفسانيّ وخاضع للنفعيّة، ومهتمّ

1- (1762 – 1814م)، Johann Gottlieb Fichte، فيلسوف ألماني. واحد من أبرز مؤسسي الحركة الفلسفية المعروفة بالمثالية الألمانية.

2 – German idealism، المثالية الألمانية: حركة فلسفية ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. اعتمدت مفهوم «المثالية» والذي يجزم بأن خواص الأشياء تعتمد على مظهرها للعقل وليست ملكات من أصل الشيء موجودة خارج إدراكنا لها.

بالكمّيات. إنّ العقل الحداثوي ليس بعقل، بل هووجه من أوجه الفضاعة. إنّ البحث عن الحقيقة ليست في ذات العقل الحداثوي، بل إنّ ما هوموجود فيه هوالبحث عن القوّة والسلطة والهيمنة، وإنّ أدوات هذه الهيمنة هي النفعيّة الإنسانويّة والعلمانيّة.

يمكن أنْ نعدّ العقل الحداثوي «عقلاً تجريبيّاً» لذاته التجريبيّة الذاتانيّة. إنّ العقل التجريبي يمتاز بطابعٍ أدواتي ولا يسعه النشاط إلّا في الأمور الكمّية والعدديّة، وإنّ غايته النفعيّة والسلطويّة أدّت إلى اقترانه بالتجريبيّة والمنهج الحسّ التجريبي المختبري. إنّ العقل التجريبي من أجل تحقيق غاياته يقدّم صورة اعتباريّة عن الطبيعة، إذ لم تكن صورة حقيقية عن العالم، بل وهمية. إنّه صورة غائيّة للعمل، ويحمل في ذاته تفكيكاً بين «الكائنات» و «ما يجب أن يكون».

التجريبيّة

التجريبيّة (1)

إنّ التجريبيّة (الفلسفة الحسيّة التجريبية) هي أحد فروع الفلسفة الإنسانويّة، ولها صلة وثيقة مع الليبراليّة الكلاسيكية، وقد تمخّضت

---

1 – Empiricism، توجه فلسفي يؤمن بأن كامل المعرفة الإنسانية تأتي بشكل رئيسي عن طريق الحواس والخبرة. تنكر التجريبية وجود أيّ أفكار فطرية عند الإنسان أو أي معرفة سابقة للخبرة العملية.

عنها «الوضعيّة» (1) و «البرغماتيّة» (2) . وإن الأخيرتَين أيضاً (أي: الوضعية والبرغماتيّة) كانتا على صلة وثيقة مع الليبرالية الكلاسيكية عند نشأتهما. لقد كانت الفلسفة الوضعيّة وكذلك البرغماتيّة في كلٍّ من بريطانيا والولايات تعملان في مجال الابستمولوجيا والأخلاق والاجتماعيات، وتدعمان الليبرالية الكلاسيكية وتمهدان للنيوليبرالية. يقول «جورج نواك» (3) بهذا الصدد:

إنّ بريطانيا تملك أقدم تراث للرأسماليّة، وإنّ الفلسفة التجريبيّة تمثّل هذا التراث خير تمثيل. إنّ الصلة بين المنهج التجريبي والنظام الاجتماعي الرأسمالي لم تكن مصادفة، بل هي صلة عضويّة. تعدّ التجريبيّة (بحكم محتواها النظري) رؤية كونيّة وتلعب دوراً اجتماعيّاً بصفتها منهجيّة فكريّة مناسبة للظروف التاريخيّة خدمةً لاحتياجات الطبقة البرجوازيّة. كما أنّ أدوارها المتلاحقة – بدءاً من الولادة والبلوغ ووصولاً للهَرَم – مرتبطة بنشوء البرجوازيّة وأفولها... إنّ التجريبيّة تمثّل الإشكاليّة الفلسفيّة التي واجهها المجتمع البرجوازي الكاثوليكي في روما. لقد اقتربت الفلسفة التجريبيّة في أبرز أشكالها من مواقف الفلسفة الماديّة، وعُدَّت حركةً بنيويّة في حقل الفلسفة. كما عملت التجريبيّة على إحياء الماديّة، ومهدت الطريق لنموالعلوم الطبيعيّة والاجتماعيّة (4) .

---

1 – Positivism، إحدى فلسفات العلوم التي تستند إلى رأي يقول إنّه في مجال العلوم الاجتماعية، كما في العلوم الطبيعية، فإن المعرفة الحقيقية هي المعرفة والبيانات المستمدة من التجربة الحسية، والمعالجات المنطقية والرياضية لمثل هذه البيانات والتي تعتمد على الظواهر الطبيعية الحسية وخصائصها والعلاقات بينهم والتي يمكن التحقق منها من خلال الأبحاث والأدلة التجريبية.

2 – Pragmatism، مذهب فلسفي سياسي يعدّ نجاح العمل المعيار الوحيد للحقيقة؛ رابطا بين التطبيق والنظرية، حيث إن النظرية يجري استخراجها عبر التطبيق.

3 – (1905 – 1992م)، George Novack، كاتب ومفكّر تروتسكي شيوعي أمريكي.

4 – Kant, Emanuel, Theory and practice, political writings, ed.H.S Reiss, Cambridge, 1991, P.P 77_78.

إنّ الليبرالية الكلاسيكية بامتلاكها خصائص من قبيل «الفردانيّة» و «النفعيّة» الجشعة، ولسطحيتها التي تتكسب بها، اعتمدت على أبسط صور العقل المتخصص بتأمين موارد العيش. فضلاً عن ذلك فإنّ ميولها البرغماتيّة وصلتها العضويّة مع المصالح الضيّقة والماديّة للطبقة الرأسماليّة جعلتها أكثر تعلّقاً واتباعاً لآراء الفلسفة التجريبيّة السطحيّة الممتزجة بتوجهات ذرائعية (برغماتيّة)، وقد كان ذلك جليّاً في تاريخ الليبراليّة الكلاسيكيّة منذ القرن السابع عشر حتى القرن العشرين. وقد نجد أصولاً بيّنة وواضحة لآراء المدرسة الوضعيّة (Positivism) وكذلك الوضعية الجديدة في نصوص وآراء الليبراليين الجدد ذوي النزعة ما بعد الحداثويّة من أمثال «فردريش فون هايك» (1) و «كارل بوبر» (2) و «ريتشارد رورتي» (3)، أو الليبراليين الجدد من أمثال «اشعيا برلين» (4) .

المذهب الذرّي

ثمّة مذهب فكريّ متجذّر في الفلسفة الإنسانويّة الغربيّة يسعى إلى تفسير الكون والوجود من مبدأ الذرّة. (5) تمثّلت أحد فروع هذا

1- (م1992 - 1899)، Friedrich August von Hayek، اقتصادي ومنظر سياسي نمساوي بريطاني من مدرسة نمساوية، عرف لدفاعه عن الليبرالية الكلاسيكية والرأسمالية القائمة على أساس السوق الحر.

2- (م 1994 - 1902)، Karl Popper، فيلسوف نمساوي- إنكليزي متخصص في فلسفة العلوم. يعد پوپر أحد أهم واغزر المؤلفين في فلسفة العلم في القرن العشرين كما كتب بشكل موسع عن الفلسفة الاجتماعية والسياسية.

3- (م2007 - 1931)، Richard Rorty، فيلسوف أمريكي. يُعدّ، إلى جانب هيلاري پوتنام، من أبرز مُمثِّلِي الذرائعية.

4- (م1997 - 1909)، Sir Isaiah Berlin، منظر اجتماعي سياسي وفيلسوف ومؤرخ أفكار روسي - بريطاني من أهم مفكري القرن العشرين والباحث الليبرالي الأبرز من أبناء جيله.

5- Atomism، المذهب الذرّي فكرة فلسفية تطوّرت في اليونان خلال القرن الخامس قبل الميلاد. يعتقد الذرّيون أن العناصر الأساسية للحقيقة تتشكّل من الذرة غير القابلة للانقسام والإتلاف، وهي مادة سابحة في الفضاء. ويظنّون أن الذرّة لها حركة، ولكنها تنعدم وترتدُّ بعد ارتطامها. وقد تكوّنت الدنيا نتيجة هذه الحركات. ووجدت فترة من الزمن ثم اختفت. وهذه العوالم والأشياء الظاهرية التي وجدت عليها تختلف فقط في الحجم والشكل وموضع ذراتها.

التيار الفكري بالذريـة الوجوديّة، وتمظهرت بصورة أخرى في نظرية «المونادات» (1) لدى «لايبنيتس». (2) اتخذ هذا المذهب الذرّي في حقل السياسة والأخلاق وعلم المناهج منحى فردانيّاً، وأصبح داعياً للمنهجيّة الفردانيّة في مجال الأخلاق والسياسة.

إنّ الفردانيّـة الأنطولوجيّة التي تمثّل الأساس النظري لقراءة الليبرالية الكلاسـيكيّة عن العالم، تنفي «الكلّانية الفلسـفيّة» (3) وتمنح الأصالة للجزء والذرّة. إنّ هذا المنظور ينكر وجود الماهيات ومفاهيم أخرى كـ«المجتمع» و «الفئة» و «الطبقة» و «العالَم» ويعدّها غير علميّة، إذ يرى الليبراليون والليبراليون الجـدد أنّ «التوتاليتاريّـة» (4) أو «الشـموليّة» تعتمـد هـذه الأسـس الواهية. وهذا ما يجعلهم أنْ يعطوا الأصالة للفرد، وأنْ يعدّوا المجتمع مفهوماً اعتباريّاً غير واقعي.

إذن فإنّ الفردانيّة أوبتعبيرٍ آخَر الذريّة والتفكّر المنكِر لأيّ كلّانيّة وماهيّة تمثّل إحدى الفرضـيات الفلسـفيّة الأساسيّة في الليبراليّةالكلاسيكية التي تبلورت بصورة واضحة في القرن العشرين في

1- يرى الفيلسوف الألماني «لايبنتس» بأن هناك جواهر مركبـة فلابد في رأيه أن تكون هناك جواهر بسـيطة. هذه الجواهر البسـيطة هي التي يسميها «المونادات»، وهي «الذات الحقيقية التي تتكون منها الطبيعة». لقد قيل بحق ان ليبنتز هو اعظم من قال بفكرة التفرد. يقول لايبتنس بهذا الصدد: ليس للمونادات نوافذ يمكن من خلالها أن ينفذ إليها شيء أو يخرج منها. (م)

2- (م1716 - 1646)، Gottfried Wilhelm Leibniz، فيلسوف وعالم طبيعة وعالم رياضيات ودبلوماسي ألماني.

3- Holism، الكلانيـة: هي الفكرة القائلة بأن الأنظمة الطبيعية (المادية والبيولوجية والكيميائية والاجتماعية والاقتصادية والعقلية واللغوية وما إلى ذلك) وسماتها، يجب أن ينظر إليها على أنها متكاملة، وليس على أنها مجموعة من الأجزاء. (م)

4- Totalitarianism.

آراء الليبراليين الجُدُد من أمثال «كارل بوبر»، و «اشعيا برلين» و «فردريش فون هايك». إنّ هذه القراءة الذرّية مواكبة للمنهجَين التجريبي والوضعي، إذ تقدّم أسساً نظريّة لتبرير الجوهر الفرديّ للإنسان والمجتمع وغيرها من الأمور السياسية والقانونيّة والحقوقيّة والتعليميّة والتربويّة والأدبية والسايكولوجيّة.

إنّ الفرديّة التي تتبناها الليبرالية الكلاسيكية متأثّرة في أحد جوانبها من الموضوعانيّة (1) في تراث «ديكارت» (2)الفلسفي. يرى ديكارت أنّ قراءة الإنسان بصفته موضوعاً نفسانيّاً تجري من خلال قاعدته الفلسفيّة المعروفة التي اختصرها في عبارة: (أنا أفكّر، إذن أنا موجود)، جاعلاً من ذلك مبدأ لنظام فلسفيّ ما بعد طبيعي، إذ سيكون محوره الفرديّ من المحاور الأساسيّة والرئيسة والمهيمنة في الليبرالية الكلاسيكية وكذلك في سائر تفرعاتها. إنّ القراءة الفرديّة للإنسان الحداثوي (بصفته موضوعاً نفسانيّاً) تبلورت بعد ديكارت في آراء «سبينوزا» (3) و «لايبنيتس» وفي آراء الفلاسفة الوضعيين الأمريكيين والأسكتلنديين، وأثّرت بصورٍ شتّى في الليبراليّة الكلاسيكيّة.

القراءة الحداثويّة للإنسان

إنّ النظريات الفلسفيّة الحداثوية كافة اعتمدت «القراءة الإنسانويّة» للإنسان. فهي قراءة تعدّ الإنسان للوهلة الأولى حيواناً

---

1 – Objectivism، الموضوعية والواقعية الفلسفية هي الاعتقاد بأن الواقع مستقل عن العقل. ابتدأ العصر الذهبي للإبستيميولوجيا الموضوعانية، التي وجدت بداية تكوينها في واقعية أفلاطون، مع ديكارت وفلسفته العقلية الخالصة. وامتد تاثيرها إلى الفلسفة الغربية، والفكر الغربي، حتى عصرنا الحاضر (م).

2– (م1650 – 1596)، René Descartes، فيلسوف، ورياضي، وفيزيائي فرنسي، يلقّب ب–«أبو الفلسفة الحديثة».

3– (م1677 – 1632)، Baruch Spinoza، فيلسوف هولندي من أهم فلاسفة القرن السابع عشر.

نفعيّاً سلطويّاً شهوانيّاً. وفي القراءة الحداثويّة (التي تبلورت في أواخر القرن الثامن عشر، وظهرت في القرن التاسع عشر في إطار علم الأحياء أو «البيولوجيا»، ولاسيما في آراء «لامارك» (1) و «داروين» (2) وفي نظرية «التطوّر») يكون الإنسان نتاجاً لتطوّر بيولوجي، إذ تكون الفاصلة بينه وبين أجداده فاصلة كمّيّة (وليست ماهويّة). إنّ دور الله سبحانه في هذا التغيير البيولوجي حسب رأي أنصار نظرية التطوّر (من غير الملحدين) يقتصر على الفكرة اليهودية القائلة ب-«الله صانع الساعة». فهي فكرة لم تقتصر على انكار «الربوبيّة التشريعية» لله جلّ شأنه، بل تنكر «الربوبيّة التكوينيّة» أيضاً. إنّ هذه القراءة الحداثوية المناوئة للدين تغفل تماماً خلقة الإنسان التي عبّر عنها النص القرآني ب-«الفطرة» التي تستبطن جانباً ملكوتيّاً عبّر عنه الله سبحانه بقوله: «ونفخت فيه من روحي» (3).

إنّ الإنسان في المدرسة الإنسانويّة هو «حيوان يصنع الآلات»، وإن الآلات التي يصنعها تمنحه القوّة لتحقيق غاياته السلطويّة والنفعيّة، وقد تجسّدت عملية صناعة الأدوات واستغلالها لتحقيق الغايات السلطوية في التكنولوجيا الحديثة. إن الفرق بين الإنسان والحيوان - وفق الفلسفة الإنسانويّة - هوفرق كمّي، إذ يتفوق على الحيوان في الجوانب الفيزيولوجيّة وبامتلاكه العقل والذكاء فقط. ولمثل هذا الإنسان - وفق المنظور الإنسانوي - الحقّ في السلطة والتشريع وإدارة العالَم، وهوالمعيار لأيّ قيمة وحكم أخلاقي وحقوقي وسياسي.

1- Jean-Baptiste de Lamarck.

2- Charles Robert Darwin.

3- سورة الحجر، الآية 29.

إنّ الليبرالية بنسخها (الكلاسيكية) و(الجديدة) و(الديمقراطية ذات التوجه الاشتراكي) تعتمد آراء الفلاسفة الإنسانويين الذين يعرّفون الإنسان في إطار «الفردانيّة» ويعتقدون بأنّ الإنسان لا يملك تمظهرا حقيقيّاً أصيلاً غير تمظهره الفردي، وإن المفاهيم الأخرى الجَمع والمجتمع والاجتماع هي مفاهيم اعتباريّة غير علميّة، وهي مجرد توهمات توتاليتاريّة. إنّ هذا التعريف الفردانيّ الحداثوي للإنسان يمكن أن نجده في آراء «بيكوديلا ميراندولا» و «فرانشيسكوبتراركا»، وإلى حدّ ما في آراء «توماس هوبز» و «جون لوك» و «آدام فرغوسن» (1). إنّ روح الليبرالية ونظرتها للإنسان متجذّرة في القراءة الحداثوية للإنسان وتختلف تماماً عن القراءة الدينية، وهي قراءة رافضة لولاية الحق ومروجة لولاية الشيطان على الإنسان الغافل والجاهل.

الأخلاق العلمانيّة - الإنسانويّة في عصر الحداثة

إن الأخلاق المبتنية على الأسس العلمانيّة والإنسانويّة هي من المبادئ الأساسية في النظرية الليبرالية الكلاسيكية. كما النظريات الحداثويّة الأخرى أيضاً (مثل الاشتراكيّة والفاشيّة والنسويّة والفلسفة المحافظة) (2)، فكلّها مستلهمة أومتأثّرة بالأنظمة الأخلاقية الحداثويّة.

على الرغم من أنّ للأخلاقيات الحديثة نمطاً واحداً يُوحدّها في إطارٍ عام، ولكنّ لهذه الوحدة النوعيّة تنوع وتكثّر في الوقت نفسه، إذ تجلّت في باطن هذا التنوع الأوجه المتعددة للأخلاقيات العلمانيّة الإنسانويّة.

1- (م1816 - 1723)، Adam Ferguson، مؤرخ اسكتلندي ومفكّر متخصص في فلسفة الأخلاق.

2 - Conservatism، المحافظة كفلسفة سياسية واجتماعية تعزز الحفاظ على المؤسسات الاجتماعية التقليدية فى سياق الثقافة والحضارة. بعض المحافظين يسعى للحفاظ على الأشياء كما هي، مع التركيز في الاستقرار والاستمرارية، في حين أن آخرين يدعون بالرجعيين، يعارضون الحداثة ويسعون للعودة إلى «ما كانت عليه الامور». أستخدم المصطلح في سياق سياسي لأول مرة في فرنسا من قبل فرانسوا رينيه دي شاتوبريان عام 1818.

يمكن تلخيص خصائص الأخلاقيات الحديثة في النقاط الآتية:

1- تستمدّ الأخلاقيات الحداثويّة معاييرها وأحكامها بعيداً عن الحقيقة الدينيّة، وتعتمد أوّلاً وآخراً الاستقلاليّة النفسانيّة البشريّة بعيداً عن الولاية الإلهيّة. بناءً على ذلك يمكن أنْ نعدّ الأخلاقيات الإنسانويّة ضرباً من «العدميّة» (1).

2- إنّ الأخلاقيات الحديثة - بعضّ النظر عن شعاراتها وادّعاءاتها - فهي لا- تسعى إلّا لتحقيق الأغراض والغايات التي تمليها النفس البشريّة، (ولاسيما عند تأكيدها النفعيّة والشهوانيّة). إنّ المفاهيم والتعبيرات المختلفة من قبيل الكمال والسعادة والفضيلة والسرور والسكينة والحريّة هي كلّها أغلفة لتلك الأغراض النفسيّة.

3- إنّ للأخلاقيات الحداثوية ماهيّة علمانيّة حداثويّة، وهي ما تسعى بشتّى الطرائق لتثبيت وتبرير الاستكبار والنفس البشريّة المستقلّة. إنّ هذه الأخلاقيات - سواء كانت ملحدة، أوتظاهرت بمفاهيم دينيّة «كالأخلاقيات التطهريّة» - فهي تستبطن في ذاتها أخلاقيات غير دينيّة والمنظور الذاتانيّ (Subjectivism)، وقد نجد كلّ هذه التفرعات والأشكال والأنواع المختلفة متجسّدة في النفس الأمّارة.

4- إنّ للأخلاقيات العلمانيّة الإنسانويّة الحداثويّة أنماطاً متعددة. فمنها ما تكون نسبويّة (2) ومنها ذهنيّة (أوذاتانيّة) ومنها

1- Nihilism.

2- Relativism، إحدى وجهات النظر الفلسفية التي تنحو إلى ان قيمة ومعنى المعتقدات الإنسانية والسلوك الإنساني ليس لها أيّ مرجعية مطلقة تقوم بتحديدها. فعملية تقييم المجتمعات الإنسانية للقيم والسلوكيات هي نتاج النسيج التاريخي الثقافي لهذه الجماعة البشرية وليس له علاقة بمرجعية خارجية مطلقة (إلهية). (م)

عينيّة (أوموضوعيّة). على الرغم من الاختلافات الموجودة بين هذه الأنماط إلّا أنّ كلها تتوحد في مستوى الماهيّة وتحت مظلّة الإنسانويّة.

5- يمكن تقسيم الأخلاقيات الحداثويّة على «العينيّة» و «الذهنيّة». ومن جهة أخرى نجد تقسيمات متنوعة ك-«النفعيّة» (1) (Utilitarianism) و «الرومانسيّة» و «الذرائعية» و «الحسيّة الخياليّة» المتبلورة في آراء أمثال «ديفيد هيوم» الأخلاقية.

تشير التجارب التاريخيّة إلى أنّ الليبرالية الكلاسيكية بصفتها أيديولوجيّة واضحة المعالم تتواءم مع الأخلاقيات النفعيّة في آراء «لوك» و «هيوم» و «هلفتيوس» (2) و «بنثام»، وكذلك مع الأخلاقيات الذرائعية في فلسفة «كانْت» (3)، والأخلاقيات (الذهنيّة - الحسيّة - العاطفيّة) في آراء هيوم. مثلما كانَت الأخلاقيات (الكالفينيّة - التطهريّة) التي تفرض العمل الصارم والمنضبط لجمع الأرباح تصبّ خلال فترة من الفترات في مصلحة الأهداف الليبرالية.

إنّ جوهر الأخلاق (العلمانيّة - الإنسانويّة) مبنيٌّ على التفكيك والانفصال بين القيم الحقائق الأخلاقيّة وواقع العالم، وهذا ما ظهر بصورةٍ متفاوتة في آراء فلاسفة الأخلاق الإنسانويين، وقد تجلّى ذلك في النظرية الأخلاقية المثبّته وفق القيم الليبرالية، إذ إنها

1- Utilitarianism، نظرية أخلاقية تنص على أن أفضل سلوك أوتصرف هو السلوك الذي يحقق الزيادة القصوى في المنفعة.

2- (م1771 - 1715)، Claude Adrien Helvé tius، فيلسوف وموسوعي فرنسي، له نظرية تقول إن الناس كلهم يولدون بقدرات متساوية لكن ظروف التربية والتعليم تجعلهم متفاوتين في القدرات.

3- (م1804 - 1724)، Immanuel Kant، أحد أهم الفلاسفة الذين كتبوا في نظرية المعرفة الكلاسيكية. وآخر فلاسفة عصر التنوير.

اعتمدت في إرساء نظريتها الأخلاقية على آراء الفلاسفة البرغماتيين والمتخصصين في فلسفة كانت.

القراءة الحداثويّة لمفهومَي السلطة والسياسة

إنّ لِمفهوم السلطة (بمعناه الحداثوي) ماهيّة إنسانويّة. إذ إن المذهب الإنسانوي يعرّف السلطة في علاقتها ب-«البشر» بصفته نفسٌ أمّارة، وإنّ مصدر السلطة ومعيار «شرعيّتها» يكون في إرادة الإنسان الحداثوي. إن الجوهر الحداثوي لمفهوم السلطة يؤدّي إلى تقويض الذات الإنسانيّة، إذ تجعل من الإنسان كائناً مبذّراً ومستهلِكاً للطبيعة، وكذلك غريباً في علاقته مع نظيره الآخر، وبهذا تُزال الأُلفة والمودّة بين الأفراد، وتتحول العلاقات إلى علاقات نفعيّة تهيمن عليها المصالح.

إنّ الليبراليّة كسائر النظريات الحداثويّة مستمدّة من المفهوم الحداثوي للسلطة. إن السلطة في إطارها الحداثوي تمثّل النواة الرئيسة للسياسة الحديثة، وإنّ النسق العام لسياسات الغرب وسائر النظريات المنتمية له (كتلك الأبحاث النظريّة المتعلّقة بالعلوم السياسية والإنسانيّة والاجتماعيّة، وكذلك تطبيقات السياسة الحديثة كالأنظمة الإداريّة والبيروقراطيّة الحكوميّة والسياسيّة والأحزاب والتنافس السلمي وغير السلمي، ونمط ممارسة السلطة في المجالات كافة) تعتمد بصورة وأخرى على هذه القراءة لهذا المفهوم.

يمكن تلخيص الخصائص الرئيسة للقراءة الحداثويّة لمفهوم السلطة كالآتي:

1- إنّ لمفهوم السلطة في الفكر الحداثوي صبغة فيزيائيّة (1) وكمّيّة .

1- Physicalism، النظرية الفيزيائية (أو المذهب الفيزيائي) في الفلسفة هي أطروحة فلسفية وجودية تقول إن «كل شيء فيزيائي»، وإنّه «لا يوجد شيء فوق أوما وراء» المادة الفيزيائية، أو إنّ كل شيء تابع للمادة الفيزيائية.

إنّ كلاّ ً من «نيكولومكيـافيلي» و «توماس هوبز» هما أوّل من بيّن وبلور مفهوم السـلطة وفق المنظور الحـداثوي. يرى «هوبز» بأنّ للسـلطة صبغة «كمّيّة»، وهي تجعل من الطبيعة والعالَم والحياة الاجتماعيّة والسياسـيّة تحت تصـرّف الإنسان الحداثوي (بصفته النفس الأمّارة). إن ظهور الميكانيكا الكلاسيكيّة (1) على يد «غاليلو» (2) و «نيوتن» (3) (من خلال انتشار العلمويّة «Scientism» بشكلٍ واسع) ساهم إلى حـدٍّ كبير في إرساء هـذه النظرة الفيزيائيّة والكمّيّة لمفهوم السـلطة. إنّ نظرة «هوبز» لمفهوم السـلطة (السارية في الفكر والسـلوك السياسـي الغربي) هي نظرة ميكانيكيّـة كمّيّـة فيزياويّـة، إذ تبدوالحلقـة المكمّلـة للهندسة الإقليديّة (4) والميكانيا الغاليليّـة، فكأنّ اللغـة الرياضـيّة – الفيزيائيّة في العالم الحداثويّ قد دخلت في حقل العلوم الإنسانيّة والحياة الاجتماعيّة (5).

2- إنّ لـذات السـلطة ولجوهرها وفي باطنها طابع «اسـتكباري». إنّ السـلطة بمفهومها الحـداثوي تعدّ النفس الأمّارة والرغبات الإنسانيّة و احتياجاته وإرادته مصدراً للقوّة أوما تسمّيه بالشرعيّة. إنّ السلطة

1- توارد مصـطلح الميكانيكا الكلاسـيكية للدلالـة على المنظومات الرياضـية التي أرساها إسـحاق نيوتن، بشـكل أساسـي، ويوهانز كبلر وغاليليوغاليلي والتي ظلّت سائدة منذ القرن السابع عشر حتى ظهور النسبية الخاصة والنسبية العامة التي صاغها أينشتاين.

2- (م1642 – 1564)، Galileon Galilei، عالِم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي.

3- (م1727 – 1642)، Isaac Newton، عالم إنجليزي يعد من أبرز العلماء مساهمة في الفيزياء والرياضـيات عبر العصور وأحد رموز الثورة العلمية.

4 – Euclidean geometry، تدرس الهندسة الإقليدية الأشـكال وتخضع لمجموعة من المسـلمات وضـعها إقليدس في كتابه العناصـر وهي الهندسة التي تدرس في المدارس والثانويات.

5- للمزيـد حول دول المدينـة اليونانيـة وأنظمتها القانونية والحقوقية ينظر: Jorgensen, B, The History of Greece Philosophy,. Hamilton, 1969

الحداثويّة لا تسعى لإحقاق الحق وبسط العدل والقسط وحكم المستضعفين وإجراء الأحكام الإلهيّة. بل تسعى لاحقاق «الإرادة التابعة للنفس الأمّارة»، ولأنّها تعامل الإنسان الحداثوي بصفته فرداً، وتعدّ المجتمعات البشريّة والطبقات الاجتماعية مصاديق للفرد، وتتخذ من الأفراد وسيلة لتحقيق المنفعة فإنّها تؤدّي إلى حدوث الخصومة والمنافسة السلبية بين الأفراد وأيجاد الغرابة بينهم.

3- إنّ السلطة بمعناها الحداثوي لا تستهدف إلّا غايات نفعيّة بحتة تصبّ في استعباد الإنسان. إن السلطة في العالم الحداثوي لا تعمل إلّا على بسط الظلم والاستكبار في العالم، وإنّ انتشار هذا المفهوم وهيمنته هونتيجة لطغيان الإنسان الحداثوي واعراضه عن الحقّ والدّين.

4- إنّ العلوم السياسية الحديثة والنظريات المتبلورة في إطار النزعة الإنسانويّة كافة تنتظم تحت لواء المفهوم الحداثوي للسلطة. إن الليبرالية الكلاسيكية أيضاً كسائر الإيديولوجيات الحداثويّة هي في مقدّمة النظريات التي تعوّل على مفهوم السلطة الحداثوي، لأنّها هي وأخواتها (كالليبرالية الجديدة) تمثّل تلك الفئات والطبقات الاجتماعيّة التي برزت في العالم الحديث (كالطبقة الرأسماليّة) إذ تعتمد القراءة الحداثوية لمفهوم السلطة وهي بحدّ ذاتها تجسد هذا المفهوم.

ص: 68

الديمقراطية الحداثويّة

إنّ الديمقراطيـة وفق النزعة الإنسانويّة، تمثّل الخطاب (1) الاجتماعي والسياسـي الذي يتبنّاه العالم الغربي والحداثوي والمسـتغرب. وفي الواقع فإنّ حياة البشـر في إطارها العام وكذلك البيئات الثقافية والاجتماعيّة والسياسـيّة تتعرّف في حقل الديمقراطيّة، وعلى الصعيد العملي أيضاً يجري تقييمها وفق المعايير التي تفرضها الديمقراطيّة.

إنّ الإنسـان الحـداثوي في المجالاـت السياسـية والاجتماعيّـة، وكـذلك على الصـعيد الفردي والحياة الشخصـيّة يعـدّ نفسه أحـدمصاديق «ديموس Demos /الشـعب». وفي النظريات الحداثوية أيضاً يعرّف الإنسان بصـفته (ديموس/الشـعب). أي إنّه حيوان اقتصادي نفعي يرى نفسه مـديراً للعالم، ويعـدّ التشـريع والحكم وأيّ تصـرفٍ آخَر في سبيل تحقيق غاياته النفسـيّة حقّاً من حقوقه! إنّ مصداق مفهوم (ديموس) يختلف من أيديولوجية لأخرى؛ ولكن في الليبرالية الكلاسيكية والليبرالية الحديثة والديمقراطية الاشتراكيّة يكون الفرد كياناً أونواة نفسيّة قائمة بـذاتها. أمّا في النظريات الأخرى (كالاشتراكيّـة والنسويّـة والاشتراكيـة القوميّة) يأخذ مفهوم (ديموس) تعريفات أخرى. فعلى سبيل المثال يكـون ال-(ديمـوس) منطبقـاً على «البوليتاريـا» أو «العِرق» و «القوميّـة» أو «الجنس المـؤنّث». ولكـن على الرغم من كـل ذلـك تتمظهر الأيديولوجيات الحداثويّة كلّها تحت لواء الديمقراطية ذات النزعة الإنسانويّة.

إنّ الليبرالية الكلاسيكية أيضاً (بصفتها أيديولوجية ذات نزعة

1- Discourse.

إنسانويّة) متجذّرة في الديمقراطية الحداثويّة. إن الديمقراطية في عالم الحداثة تعطي ل-«ديموس» أوللذات النفسيّة أو «البشر بصفته نفس أمّارة» حقّاً في التشريع والحكم، وتعدّه خالقاً للقيم الأخلاقيّة ومعياراً لكل الأمور. إنّ الليبرالية الكلاسيكية بصفتها أيديولوجيّة ديمقراطية تضع الفرد الليبرالي في أولى اهتماماتها، وتؤكّد - من بين كلّ التمنّيات الفرديّة - مفهوم الحريّة (حريّة النفس الأمّارة الفرديّة). إن الحريّة الفردية التي تدعو إليها الليبرالية هي حريّة مبنيّة على مبدأ النفعيّة إذ تنشد غاياتها في نظام رأسمالي علماني إنسانوي.

عند الحديث عن الديمقراطية ذات النزعة الإنسانويّة لن يكون ثمّة فرق بين الليبرالية والفاشيّة والليبرالية الجديدة والماركسيّة. فلذلك تكون لدينا «ديمقراطيّة ليبرالية» و «ديمقراطيّة فاشيّة» و «ديمقراطية اشتراكيّة» (وكذلك ماركسيّة واستالينيّة). وإذا كان مفهوم الديمقراطية في وقتنا الحاضر محصوراً بالليبرالية (الديمقراطيّة الليبرالية) فهذا من نتاج قوة الأجهزة الإعلامية لدى القوى العظمى والشركات التي تتبنى هذا النمط من الديمقراطية. فضلاً عن ذلك فإنّ منظّري الليبرالية الذين جعلوا من الديمقراطيّة ذات النزعة الإنسانويّة أمراً مقدّساً زاخراً بالفوائد والحسنات وروّجوا لليبرالية الكلاسيكية والجديدة بصفتها المصداق الواقعي للنظام الديمقراطي، سعوا كثيراً لإقصاء النظريات المنافسة. علماً هناك مِن الليبراليين مَن قَبِلَ بوضع نظرية (الديمقراطية الاشتراكية) و (الأنظمة الليبرالية ذات التوجه الاشتراكي والديمقراطي كالسويد وفنلاندا والنروج) ضمن دائرة الأنظمة السياسية الديمقراطية. ولكن الليبراليون الجدد المتشددين المدافعين عن الرأسماليّة الشخصيّة من أمثال «فردريش فون هايك» فإنّهم يرفضون ذلك تماماً ويحصرون الديمقراطية بنسختها الليبرالية الكلاسيكية والجديدة فقط.

تبلور الخطاب الديمقراطي الإنسانوي في الغرب الحديث في أوائل عصر النهضة، إذ أُسِّست في فلورانسا الإيطالية في عام 1300 جمهورية حديثة طبّقت بعض الأسس والمبادىء الديمقراطية. وقد يمكن تتبع بعض الآراء ذات الطابع الديمقرطي في نصوص «مارسيليوفيسينو» و «نقولاس الكوزاني»، إذ تناولوا بعض الموضوعات التي أصبحت لاحقاً من أسس الديمقراطية. إنّ غالب النقاشات والسجالات الفكريّة في التاريخ الغربي (بعد مارسيليو والكوزاني وميكيافيلي) تتمحور حول تعريف مصداق ال-(ديموس) وحدوده وحقّه في التشريع والحكم، إذ كانت غالب الجهود الفكرية تنصب في وضع قاعدة نظريّة منسجمة للديقمراطية الإنسانويّة واشكالياتها العديدة. لقد بادر «جان جاك روسو» الذي كان أحد الفلاسفة الإنسانويين في عصر النهضة إلى وضع قواعد الديمقراطية ذات النزعة الإنسانيّة، مبلوراً الفكر الديمقراطي ليكون بعد ذلك منعطفاً هامّاً في تاريخ الفكر الغربي. إنّ ما فعله «روسو» هو توسيع رقعة مصاديق «ديموس»، إذ شمل الطبقات الفقيرة والمعدمة أيضاً في دائرة ال-«ديموس».

إنّ الليبرالية الكلاسيكية بصفتها نظرية ديمقراطية ذات نزعة إنسانيّة طوال القرنَين السابع عشر والثامن عشر كانت تعارض توسيع دائرة الديموس وترفض شمول الطبقات والفئات الفقيرة والنساء، وهذا ما نجده في نصوص «جون لوك» بصفته رائد الليبرالية الكلاسيكية، وكذلك في آراء «ايمانوئل كانط» بصفته المنظّر والفيلسوف المؤثر الذي اعتمده لاحقاً الليبراليون من أتباع الديمقراطية الاشتراكية والليبرالية الجديدة.

لقد صرّح كانط برأيه القائل: إنّ امتلاك رأس المال، (وحسب

تعبيره الاستقلاليّة والسيادة) هو الشرط الأساس الذي يجعل الفرد مواطناً ومتساوياً مع سائر المواطنين الأحرار، وهذا هو الذي يمتلك حق التصويت والتشريع والحكم. وإذا فقد هذا الشرط فسيفقد الحقوق السياسية المخصصة للديموس. يقول كانط بكلّ صراحة إنّ العمّال أو العبيد وكلّ من لا يملك رأس المال يُحرَم من النشاط السياسي والاجتماعي (1)، (فضلاً عن ذلك فإنّ النساء أيضاً لا يملكن أي حقّ من حقوق المواطنة وفق آراء كانط). بعبارة أخرى يرى كانط أنّ مفهوم المواطنة فق المجتمع الليبرالي الحديث يشمل من يملك الاستقلاليّة، ولا تتحقق هذه الاستقلاليّة (التي هي استقلاليّة اقتصاديّة) إلّا بامتلاك رأس المال. يرى كانط أنّ الفرد الذي يملك رأس المال ولا يعمل لدى شخص أو مؤسسة أخرى، بل يؤمّن عيشه من خلال رأس ماله فهو مستقلّ وسيّد نفسه ويتمتع بحقوق المواطنة، وإنّ هذه الاستقلاليّة هي من شروط «الديموس /الشعب» وفق المنظور الديمقراطي.

على الرغم من آراء كانط حول «حقوق الإنسان» و«الكرامة الإنسانيّة» و«الحريّة» و «رفض الاستبداد»، إلّا أنّه يقصي الفقراء والطبقات المعدمة من أيّ نشاط سياسي واجتماعي ويحرمهم من حقّ المواطنة لسببٍ واحد وهو عدم امتلاكهم رأس المال. ومن هنا يتّضح الوجه الظالم للفكر الليبرالي وزيف شعاراتها الداعية لحقوق الإنسان.

قد نجد الليبرالية في بدايات القرن العشرين مستجيبة لموجة الاعتراضات والنهضات التي قادتها الطبقات الفقيرة في المجتمعات

1- هارولد لاسكي، سير آزادی در اروبا، ص: 70_73.

الغربيـة، إذ أعطت بعض الحقوق الأساسـية لمن لاـ يملك رأس المال وللنساء ولـذوي البشـرة السوداء؛ ولكن على الرغم من كلّ ذلك فإن الطابع التمييزي بين الأفراد والنزعة الظالمة في جوهر الليبرالية ما زالت باقية، بل اتسـعت وانتشـرت أكثر من قبل، ما زالت الأصوات الداعية للحرية والعدالة العالميّة تقمع وتحارب.

إنّ الخطابات التي تبلورها كلٌّ من «الديمقراطيـة الإنسانيّة» و «العلمانيّة الإنسانيّة» و «نظرية التقدّم» تلعب أدواراً أساسـيّة في العالـم الغربي على الصـعيدَين النظري والعملي، إذ اعتمـدتها الليبرالية الكلاسـيكيّة في منظومتها المعرفيّة. ولكن مع ذلك فإنّ العلاقة بين هذه الخطابات الثلاثـة ليست في مسـتوى واحـد، فثمّـة اختلاف في آلية التأثير ومقداره، ولكن مع ذلك تجتمع نظريات عالـم الحداثة وأيديولوجياتها تحت مظلّة هذه الخطابات.

نظريّة التقدّم

نظريّة التقدّم (1)

إن أحـد الخطابات الفعّالـة والمؤثرة في الليبراليـة (بكلّ نسـخها) هي «نظرية التقدّم». تبلور هذه النظرية خطاباً يُعدّ من الأسـس الرئيسة في «تاريخ النزعة الإنسانيّة» وتذهب الى اسـتقلالية الذات البشـريّة لتقول: إنّ العالـم الحداثوي بمثابة الفترة التاريخية الأنضج والأفضل التي مرّ بها الإنسان. إنّ معايير التقدّم وفق هذه النظريّة تتمثل ب-: تجميع رأس المال وتداوله (2)، وكذلك بهيمنة القيم الحداثوية وعقليتها وانتشار التكنوقراطية (3) والبيروقراطية الحديثة (4)، واعتماد

1- Idea of progress.

2- Working capital.

3- Technocracy، حكومة التقنية ويقال حكومة الكفاءات.

4- Bureaucracy، تطبيق القوانين بالقوة في المجتمعات المنظمة.

العلم والعلمويّة (1) والتقنيات الحديثـة. إنّ العلمانيّة بنزعةٍ إنسانيّة ورفض التعاليم الدينية هي من ملازمات نظريّة التقدّم، فهي فرضـيّة ترى بأنّ تقدّم الإنسان يعني دخوله في عالم الحداثة وتحديثه، وعلى هذا الأساس سيكون الإيمان بالوحي (حتّى إنْ كان نقيّاً غير ممتزج بشوائب الحداثـة) انتهاجاً للخرافة والأفكار الظلاميّة، وإنّ كل فرد أوكلّ مجتمع غير حداثوي يُعَد (متخلّفاً) بالمقارنة مع المجتمعات الحداثويّة. إنّ فرضيّة التقدّم المبنيّة على قراءة علمانيّة واقتصاديّة للتاريخ تعدّ التكنولوجيا الحديثة والمعقّدة وقوّتها على التدمير دليلاً على «تقدّم»!!؟ العالم الغربي؛ فإنّها تنبذ وتقصـي كل العلوم والمعارف المتداولة قبل عصـر الحداثة وتعدّها متخلّفة ورجعيّة، أوفي أفضل الأحوال تعدّها نموذجاً ناقصاً وغير مكتمل للعلوم الحديثـة. وبهـذا تكون نظريّـة التقـدّم كعَصا لضـرب الشـعوب غير الحداثويّة وتحقيرها، ولإبراز الفرد الحداثوي والمجتمعات الحداثويّـة الغربيّـة في مكانٍ أعلى مرتبـة من غيرهم. ولكن على الرغم من كلّ ذلك فإنّ البيئة الغربية نفسـها ظهرت في شتّى الحقول العلميّة والمعرفيّة كفلسفة العلم والعلوم الاجتماعيّة وفلسفة التاريخ والتكنولوجيا والأخلاق والاقتصاد، ظهرت أفكار ما بعد الحداثة (بدءً من «نيتشه» (2) و «هايدغر»(3) ووصولاً ل-«ماركوزه»(4) و «هوركهايمر»(5)

1- scientism.

2- Friedrich Wilhelm Nietzsche (1844-1900م).

3- Martin Heidegge.

4- (1898 - 1979)، Herbert Marcuse، فيلسوف ومفكر ألماني أمريكي، معروف بتنظيره لليسار الراديكالي وحركات اليسار الجـديد ونقده الحاد للأنظمة القائمة.

5- (1895 - 1973)، Max Horkheimer، فيلسوف وعالم إجتماع ألماني، اشـتهر بمجهوداته في النظريـة النقدية كعضو في مدرسـة فرانكفورت الفلسفية للأبحاث الإجتماعية.

و «بودريار» (1) و «فوكو» (2) و «كوهن» (3) و «فايرابند» (4)، وكذلك نزعات روحيّة ومعنويّة، وهي توجهات وأفكار تنقد بشدّة مبادئ وأسس نظريّة التقدّم آنفة الذكر، وتعدّها فرضيّة فاقدة لأيّ اعتبار وضرباً من «الأوهام» داخل النزعة الإنسانية، إذ يكون هدفها بسط سلطة العالم الحداثوي.

إنّ الليبرالية الكلاسيكية ممزوجة بخطاب نظرية التقدّم، إذ يجد الباطن البرغماتي ذا النزعة الاستعماريّة الكامن في نظريّة التقدّم مجالاً مناسباً للظهور في الرأسماليّة الليبرالية.

ظهرت البوادر الأولى لنظريّة التقدّم في أفكار وآراء «فرانسيس بيكون» (5)، واتسعت وانتشرت الفكرة لاحقاً في الفكر الغربي.

فلسفة الحق ذات النزعة الإنسانويّة

إنّ إحدى الأفكار السائدة والمشتركة في الحضارتّين الاغريقيّة والرومانيّة هي «علم الكون». كان الكون لدى الإغريق هومصدر الحقوق ومعيارها. إنّ نظام الأفلاك والكواكب وفق التفكير الاغريقي والروماني يسير وفق العدل والخير، وإنّ حضور الآلهة الشبيهة

1- (م2007 - 1929)، Jean Baudrillard، منظر ثقافي وفيلسوف، ومحلل سياسي، وعالم اجتماع فرنسي.

2- (1926-1984) Michel Foucault،

3- (م1996 - 1922)، Thomas Samuel Kuhn، مفكر أمريكي أنتج بغزارة في تاريخ العلوم وفلسفة العلوم، كما أدخل إضافات وأفكار مهمة جديدة في فلسفة العلم.

4- (م1994-1924)، Paul Feyerabend، فيلسوف نمساوي، عرفت أفكاره بالفوضوية، أي رفض وجود نسق علمي ثابت ونهائي.

5- (م1626 - 1561)، Francis Bacon، فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على «الملاحظة والتجريب». من الرواد الذين انتبهوا إلى غياب جدوى المنطق الأرسطي الذي يعتمد على القياس.

بالإنسان وغير المقدّسة ك-(«زيوس» (1) و «يوبيتر» (2) و «أفروديت» (3) و «فينوس» (4)) هوجزء من نظم هذه الأفلاك. إنّ حركة الكون والأفلاك (أوالطبيعة التي هي جزء من النظام الكوني) في الفكر الإغريقي والروماني تسير وفق العدل، وهذه هي عدالة ذاتيّة في نظام الأفلاك، وسارية في الطبيعة. لقد استنبط الفكر الإغريقي من هذه العدالة نظاماً حقوقيّاً يتطابق مع طبيعة العدالة الكونيّة وسمّاها ب-«الحقوق الطبيعيّة»، وأصبحت هذه الحقوق لاحقاً أساساً لفكرة «دولة المدينة» (5) في الحضارة الإغريقيّة، مع بعض الاختلافات والتغييرات بين الأنظمة الجمهوريّة لدى الإغريق والإمبراطوريات لدى الرومان. بناء على ذلك أصبح النظام السياسي الحاكم في «دولة المدينة» الإغريقية والإمبراطورية الرومانية نسخة ثانية لعدالة الكون أوالطبيعة، مستمدّاً شرعيته من هذه العدالة. لقد كان أرسطويعدّ دولة المدينة نسخة ثانية من النظام الكوني، ومجالاً لظهور الحقوق الطبيعيّة، ولذلك عَدّها (أي: دولة المدينة) من ضمن الواقعيات الطبيعيّة، إذ عرّف الحقيقة الإنسانيّة في إطار علاقتها بدولة المدينة. وهذا ما أدّى باليونانيين إلى الاعتقاد بأنّ كلّ فرد أومجتمع خارج نظام دولة المدينة هوخارج دائرة الإنسانيّة، وليس بإنسان (6).

إنّ ما كان يطلَق عليه في العالم الغربي القديم الحقوق الطبيعيّة

1- Zeus.

2- Jupiter.

3- Aphrodite.

4- Venus.

5- City-state.

6- هارون يحيى، فراماسونري جهاني، (الماسونية العالمية)، سيد داوود ميرترابي، انتشارات المعي، 1385 ه-.ش، ص 13.

كانوا يعدّونه انعكاساً لنظم الطبيعة ونظامها، ولأنّ لنظام الكواكب والأفلاك وآلهتها صبغة مقدسة فلذلك تكون الحقوق المستمدّة من هذا النظام مقدّسة أيضاً.

أمّا في القرون الوسطى فقد كانت فكرة (محورية الله) (1) هي جوهر ذلك العصر وروحه. إن (ثيو) أو (ثيوس) أو (إلوهيم) (2)الذي كان يعدّ هوالرَّب هونتاج مفبرك من التراث اليهودي والإغريقي الذي كان يقدّس (زيوس)، وهوإله بباطن غير ديني ووثني، ومتخفٍّ بظاهره الشرائعي. إن الثقافة السائدة في الغرب طوال القرون الوسطى لم تكن ثقافة دينيّة نقيّة، بل كانت مشوبة بشِرْكٍ أفرزه التراث اليهودي واليوناني، وهوما تمظهر في فلسفة قرون الوسطى، ولاسيما في دهاليز «الاستدلالات» المقتبسة من الميتافيزيقا اليونانيّة التي ارتدت ثوباً دينيّاً مزيّفاً. بحلول القرن الثاني عشر الميلادي، وتحديداً بعد عصر «القديس ابيلار» (3) وبظهور فلسفة «توما الأكويني» تبلورت النزعة الدهريّة الكامنة في التراث (اليهودي – الإغريقي) المشترك. (لا نقصد هنا تخطئة فلسفة الأكويني، بل نريد الإشارة إلى دور فلسفته في التمهيد لظهور الروح العلمانيّة الإنسانويّة في الغرب). على الرغم من أنّ الأكويني لم يكن مؤمناً ب–«الحقوق الطبيعية» وفق المفهوم اليوناني، ولكنّه (عن غير قصد) مهّد الطريق لبلورة قراءة حداثويّة للحقوق الطبيعية وذلك من خلال تفسيره لهذه الحقوق

1- Theocentricism.

2- إلوهيم (Elohim) كلمة عبريّة لوصف الإله أوالآلهة، وهي متعلقة بكلمة إل (إله) السامية مع أنها تعتبر مشتقة من كلمة الوَه مع صيغة الجمع. إلوهيم ثالث كلمة في النص العبري لسفر التكوين وتظهر كثيرا في التناخ مع أن معناها الدقيق غير متفق عليه غالبا. (م)

3- (م1142 – 1079)، Peter Abelard، فيلسوف فرنسي شهير وله الفضل في إنشاء جامعة باريس، ويعتبر شعلة ألهبت عقل أوروبا اللاتينية في القرن الثاني عشر، ويعتبر ممثلا لأخلاق عصره وآدابه.

الذي التزم فيه بقواعد الفلسفة المدرسيّة. (1)

على الرغم من أنّ فلسفة الحقوق الإنسانويّة ومنظومتها المعرفيّة لا تنحصر بنظرية «الحقوق الطبيعيّة»، ولكنّ لهذه النظريّة مكانة مهمّة في فلسفة الحقوق الإنسانويّة التي مهدت الطريق لنشوء الليبرالية الكلاسيكية. ثمّة فلاسفة في العالم الغربي الحديث من أمثال «جوهانس التوزيوس» (2) و «غروتيوس» (3) و «جان بودان» (4) قدّموا قراءة إنسانويّة عن فلسفة الحق. إنّ الإنسان في فلسفة الحق الإنسانويّة يُعَدّ مصدراً للحقوق، وبناء على هذا الحق يخوّل بالتصرف في وضع القوانين والحقوق معاً بطريقةٍ لا يحدّها أي شيء آخر.

إنّ الفلاسفة الإنسانويين المؤسسين لنظريّة الحقوق الإنسانويّة يعدّون الإنسان المستقل بذاته (وتحديداً النموذج البرجوازي) مصدراً لشرعيّة الحكم، وإنّ الدويلات المدنيّة في عصر الحداثة تستمد شرعيتها من هذه الفكرة.

إن فلسفة الحقوق الإنسانويّة مبنيّة على الأسس الآتية:

1- إنّ حقّ الحُكم ليس لله تعالى، بل هوتابع لرأي الإنسان ورغبته

---

1 - Scholasticism، المدرسية أوالمكتبية (أوالسكولائية، فلسفة المدرسة)، تطلق على فلسفة المدارس الكاتدرائية في العصر الوسيط (التي اصبحت جامعات فيما بعد)، والتى حاولت المزج بين العقائد المسيحية وعناصر الفلسفة الاغريقية عند سقراط وارسطوباستخدام القياس المنطقي والجدل.وبلغت الفلسفة المدرسية أعلى مراحل تطورها فى فلسفة توما الاكويني.

2- (1562 - 1638م)، أوّل من نظّر لفكرة الفدرالية في أوربّا في القرن السادس عشر.

3- (م1645- 1583)، Hugo Grotius، قاضي هولندي. وضع مع فرانشيسكودي فيتوريا وألبريكوغنتيلي أسس القانون الدولي اعتماداً على الحق الطبيعي كما كان فيلسوف وعالم إلهيات ولاهوت دفاعي وكاتب مسرحي ومؤرخ وشاعر.

4- (م1596-1530)، Jean Bodin، فيلسوف فرنسي يعتبر صاحب نظرية السيادة ومن فلاسفة المذهب التجاري.

وإرادته، ويتحقق حسب رغبة الأفراد وتوافقهم.

2- إنّ الأنظمة القانونيّة والسياسية في الدول الناشئة عن هذا الحق يجب أن تتأسس لتحقيق رغبات الإنسان وغاياته (النفعيّة) ذات التوجّه العلماني والإنسانوي. لقد تبلورت مثل هذه الغايات في آراء المفكّرين والاقتصاديين والاجتماعيين بعناوين مختلفة من قبيل: «الرفاه» (1) و «تأمين الحاجات الإنسانيّة».

3- إنّ للإنسان حقوقاً طبيعيّة وذاتيّة، وعلى الحكومات الاعتراف بها. تطالب هذه الحقوق بتحقيق تلك الغايات الإنسانيّة آنفة الذكر.

إنّ جوهانس آلتوزيوس (الذي كان ينتمي لتجمّعات يهوديّة وماسونيّة) طرح نظرية «حكم الشعب» في إطار فلسفة الحقوق الإنسانويّة المستلهمة من «الحق الطبيعي» الذي يُعَد مفهوماً غير قابل للإثبات ولم يتحقق من صحّته، ولا يوجد أيَّ دليل أوقرينة تاريخية أواستدلال تجريبي يؤيّد صحّته، ولكنّه يُعدّ في الفلسفة الإنسانويّة مفهوماً يقينيّاً مفروضاً. ذهب آلتوزيوس إلى أنّ الشعب هومصدر الشرعية للسلطة السياسية، مقدّماً قراءة أخرى للصورة الجمعية عن النفس الأمّارة التي يمكن موائمتها مع النفسيّة الفردانيّة.

كان آلتوزيوس أحد أتباع الكالفينيّة من مناصري الرأسماليّة الفرنسيّة الذين كانوا يسمّوَن ب-«الهجنوت»، وإنّ نظريته في «حكم الشعب» منحتهم ذريعة سياسيّة ليرسّخوا نهجهم الرأسمالي المناهض للإقطاعيّة والنظام السياسي السائد في فرنسا وقتئذ. كان الهجنوت كسائر التيارات الكالفينيّة يعكسون الأهداف والغايات

1- welfare state، مصطلح يعني أن الدولة تلعب الدور الأساسي في حماية وتوفير الرفاه الاقتصادي والاجتماعي لمواطنيها (م).

اليهوديّة في إطار آراءٍ جديدة عن الديانة المسيحية وبنزعة حداثويّة.

على الرغم من أنّ نظرية «حكم الشعب» في القرن السادس عشر كانت متبلورة على يد «جان بودان»، إلّا أنّ آلتوزيوس في نظريته المشابهة كان يعتمد «الحقّ الطبيعي» أكثر من غيره. ويجب الانتباه إلى أنّ «الشعب» في هذه النظريات يحمل مضامين (علمانيّة – حداثويّة)، ويُراد منه صورةً من صور ال–«ديموس»، إذ يُزَج به في إطار نظامٍ كليّ ليُطلَق عليه تسمية «الشعب» الذي يملك حقّ الحكم والتشريع. إنّ نظرية حكم الشعب هي أحد الفروع المهمّة في النظريّة الديمقراطية، إذ تبلورت في القرن السادس عشر، وكان لها القول الفصل طوال القرنَين السابع عشر والثامن عشر، ولاسيما في الثورات (الليبرالية – الماسونيّة) في كلٍّ من بريطانيا وفرنسا، اقترنت بالليبرالية وأصبحت جزءً من الأسس الفكرية لدى الدول الناتجة من تلك الثورات.

إضافة إلى آلتوزيوس فقد كان للقانوني الهولندي «هوغوغروتيوس»، دورٌ مهمّ في وضع فلسفة الحقوق الإنسانويّة في الغرب الحداثوي، إذ أثّرت آراؤه كثيراً في نشوء النظام القانوني والحقوقي الإنسانويّ بنزعة ليبرالية. ولد «غروتيوس» في أسرة أرستقراطيّة هولنديّة ودرس في المدارس الدينيّة المسيحيّة في مدينة اورليان الفرنسيّة، واختير بعد عودته إلى هولندا نائباً في البرلمان الهولندي. بعد فترة نشب خلاف بينه وبين القائد العسكري الهولندي وهذا ما جعله يذهب لباريس، حيث عمل في البلاط الفرنسي، ونشر كتبا في القانون الدولي. إنّ رؤيته في القانون الدولي هي رؤية غربيّة بامتياز، إذ لا يعدّ أي حقوق لغير الغربيين في القانون الدولي، مبلوراً بذلك أسساً فكرية وقانونيّة للحركات الاستعماريّة الغربيّة التي اضطهدت الشعوب غير الغربيّة.

ص: 80

يوجد في النظام القانوني الذي أرساه غروتيوس نزعة علمانيّة واضحة، إذ هومبنيٌّ على القراءة الإنسانويّة لفكرة حقوق الإنسان.

إنّ هارولد لاسكي الذي يُعرَف بميوله الحداثوية والاستعماريّة يقدّم شرحاً موجزاً ومفيداً لأسباب نشوء النظام الحقوقي الحديث.

يقول هذا العالم الاقتصادي بهذا الصدد:

لقد اقتضت الحاجة الاجتماعيّة في القرن السادس عشر إنشاء قواعد حديثة للنظام القضائي. يمكن قراءة هذه القواعد الحديثة من منظارَين: أوّلاً لقد أدّت هذه القواعد إلى وضع القانون الدولي بمفهومه الراهن الذي تعتمده الدول في الوقت الحاضر. ثانيا تمايزت الحقوق العامّة والحقوق الخاصّة التي كانت ممزوجة في أيّام الإقطاعيّة. لم تقتصر القوانين على أنّها وضعت وفق أسس جديدة، بل إن مناهج التفكير ترقّت وتطورت [يقصد لاسكي الفكر الإنسانويّ] وراح المشرّع يطابق القوانين مع الحاجة الاقتصادية. [يقصد لاسكي الاقتصاد الاستعماري الرأسمالي الغربي، الذي تمثّل بالأنظمة الرأسماليّة المبنيّة على الملكيّات الشخصيّة واسعة النطاق] وقد أعيد النظر في مفهوم الحق من وجهة نظر قانونيّة. يمكن القول إنّ نتائج ظهور المجتمع الجديد لم تتبلور في أيّ محورٍ اجتماعي آخَر مثل تبلوره في الجوانب القانونيّة والحقوقيّة. فعلى خلفيّة الاصلاح الديني [أي البروتستانتيّة ومذاهبها] أصبحت الحاجة ملحّة لسنّ القوانين الدوليّة. وعلى خلفية الاكتشافات الجغرافيّة [أي الفتوحات والنهب والاحتلال وتوسيع الإمبراطوريات الغربية على حساب سائر الشعوب غير الغربيّة] تولدّ السؤال القائل: كيف ترسم حدود الأراضي المستعمرة وكيف تُقَسَّم؟ إنّ سلطة كنيسة البابا لم تكن كافيّة، لأنّ

البروتستانتيين ما كانوا يطيعون البابا. ولذلك كان الحلّ في وضع قوانين جديدة غير مستمدّة من سلطة البابا. فضلاً عن ذلك فإنّ ظهور الدول القوميّة الجديدة حفزّت المشرعين على وضع قوانين دوليّة جديدة. إنّ الدول التي أُسِّستْ على أساس الوحدة القوميّة كانت تترابط فيما بينها اقتصادياً، فعلى أعقاب تشكيل الجمهوريات الاتحاديّة مثل جمهورية هولندا (1) أصبحت الحاجة ملحّة لوجود القوانين الدوليّة... لذا بادر القانونيون لوضع قوانين جديدة لا يعتمد تنفيذها جانباً إلهيّاً، [أي تكون علمانيّة وإنسانويّة]، وأنْ تكون قابلة للتنفيذ بصرف النظر عن المعتقدات الدينية... طرح غروتيوس آراءً حول نشوء الدولة، ولم يعتمد في ذلك العلوم الدينية القديمة، بل استند إلى العلوم الجديدة. [بعبارةٍ أخرى كانت آراء غروتيوس تعتمد النزعة الإنسانوية والعلوم الحديثة، ومدبرة عن التعاليم الدينية والموضوعات الفلسفيّة غير الإنسانويّة]. لقد أرسى غروتيوس قواعد جديدة لنشوء الدولة، مستندا إلى القوانين المنطقيّة والطبيعيّة، [أي استند للديمقراطية ذات النزعة الإنسانويّة والتفسير الإنساني للفرد وطبيعة البشر والسياسة والأسس القانونيّة]، وصرّح بأنّ الغاية من تشكيل المجتمع هوبقاء الفرد. (2) [أي الفردانيّة الإنسانويّة].

لقد ظهر مذهب فلسفيّ إنسانويّ في القرنَين السابع عشر والثامن عشر متبلوراً في آراء «هوبز» و «لوك» و «روسو»، إذ عُرِفَ ب-«الحَقّ الطبيعي»، وقد لعب دوراً أساسيّاً في إبراز الوجه القانوني للنظريّة الليبرالية الكلاسيكية وفي بسط فلسفة الحقوق الإنسانويّة.

1- جمهورية هولندا وتعرف أيضا بجمهورية البلدان السبعة المنخفضة وتعرف اختصاراً بالمقاطعات المتحدة. هي جمهورية أوربية سابقة استمرت بين عامي 1581 و 1795 في موقع المملكة الهولندية الحالية نفسها، والتي تعتبر نفسها وريثةً لتلك الجمهورية.

2- Lazarov, V. / The History of mystic western thought/ Hamilton: Pe/ 1969/ P.12

الليبرالية والماسونيّة والقبلانيّة

إنّ الماسونيّة هي تجمّع سرّي يروّج للإنسانويّة والرأسماليّة، ولعب دوراً كبيراً في مجمل التطورات السياسيّة والاجتماعيّة في العالم الحداثوي. على الرغم من أنّ الماسونيّة قد بدأت في عام 1717 (حسب رأي الباحثين المنتمين لها) ولكن يبدوأنّ هناك مجموعة من المحافل والتجمعات والمنظمات السريّة وشبه السريّة كانت تعمل منذ منتصف القرون الوسطى على ترويج الآراء الإنسانويّة معتمدةً في ذلك تفاسير وتأويلات شتّى من الآراء اليهوديّة والتعاليم القبلانيّة. (1) وقد كانت الغاية من وراء ذلك نشر الثقافة الإنسانويّة وبسطها. فضلاً عن ذلك فإنّها أفرزت الشبكة الواسعة والمتنفذة للماسونيّة الرسميّة التي ظهرت في القرن الثامن عشر، وتفرّعت عنها التيارات المتصديّة للمؤامرات.

منذ تشكيل التنظيم السرّي المعروف ب-«فرسان المعبد» (2) (Templar Knights) في عام (1118 م) (3) تشكّلت الكثير من التنظيمات السريّة المكتنفة بالألغاز في كلٍّ من إيطاليا وإسبانيا، وفي سائر مناطق أوربّا. كانت هذه التنظيمات تعتمد نوعاً من اللغة الروحانيّة والتعاليم اليهوديّة و الهيرمنوطيقية لتوسيع دائرة النزعة الإنسانويّة، وكذلك لنشر اليهوديّة

1- Kabbalah، القباله أو القبلانية هي معتقدات وشروحات روحانية فلسفية تفسر الحياة والكون والربانيات. بدأت عند اليهود في القرن الثاني عشر وبقيت حكراً عليهم قروناً طويلة حتّى أتى فلاسفة غربيّون وطبّقوا مبادئها على الثقافة الغربيّة في ما يسمّى «العصر الجديد».

2- فرسان الهيكل، أوفرسان المعبد ويلقبون بالجنود الفقراء للمسيح ومعبد سليمان، وعرفوا أيضاً بالداوية أو تنظيم الهيكل، قد كانوا أحد أقوى التنظيمات العسكرية التي تعتنق الفكر المسيحي الغربي، وأكثرها ثراءً ونفوذاً، وأحد أبرز ممثلي الاقتصاد المسيحي، ودام نشاطها ما يقرب من القرنين في العصور الوسطى.

3- ينظر: شولم، كرشوم، جريانات بزرك در عرفان يهودي، (التيارات العقائدية المهمة في العرفان اليهودي)، فريدالدين رادمهر، نيلوفر، 1385 ه-.ش

بصورة علنيّة وخفيّة، والآراء المشبوهة الصهيونيّة ضدّ الإسلاميّة، والدعوة لاستعمار الشعوب الإسلاميّة. لقد لعبت هذه التنظيمات واسعة النطاق دوراً مهمّاً في بلورة الآراء الإنسانويّة وتوجيه أفكار الشعراء والكُتّاب والفلاسفة والرسامين والمتكلّمين والسياسيين، وبعبارة أخرى مناصري الإنسانويّة والحداثة. إنّ طيفاً كبيراً من أعلام الغرب الحداثوي من أمثال «ليوناردودافينشي» (1) و «ميكيل آنجيلو» (2) و «كيبلر» (3) و «بيكوديلا ـ ميراندولا» و «نيوتن» و «كريستوفر كولمبوس» (4) و «مارتين لوثر» و «جان كالفن» وفلاسفة عصر التنوير من أمثال «كرومويل» (5) و «يان هوس» (6) و «مونتسر» (7) وغيرهم كانوا من المنتمين لهذه التنظيمات.

إنّ التنظيمات شبه الماسونيّة التي نشطت منذ بدايات القرن الثاني عشر تحوّلت في القرنَين الرابع عشر والخامس عشر إلى تيّاراتٍ فكريّةٍ واجتماعيّةٍ مؤثّرة، وانبثقت عنها التنظيمات الماسونيّة الرسميّة في القرن الثامن عشر، حتّى أصبحت الماسونيّة في القرن التاسع عشر تنظيماً عالميّاً قويّاً ومعقّداً وواسعاً ومتشعّباً، وله فروع

1- (م 1519 - 1452)، Leonardo da Vinci، رسام، ومهندس، وعالم نبات، وعالم خرائط، وجيولوجي، وموسيقي، ونحات، ومعماري وعالم إيطالي.

2- (م1564 - 1475)، Michelangelo، رسام ونحات ومهندس وشاعر إيطالي.

3- (م1630 - 1571)، Johannes Kepler، عالم رياضيات وفلكي وفيزيائي ألماني.

4- (م1506 - 1451)، Christopher Columbus، رحالة إيطالي، ينسب إليه اكتشاف العالم الجديد (أمريكا).

5- (م1540 - 1485)، Thomas Cromwell، سياسي انجليزي، شغل منصب وزير الملك هنري الثامن من 1532-1540.

6- (م1415 - 1372)، Jan Hus، مفكر ديني، وفيلسوفاً ومصلح تشيكي. اقترح فكرة إصلاح الكنيسة في التشيك، واتبعه العديد من الناس في بلاده، وسموا المعتدلين منهم بالهوسيتيين بينما أطلق اسم التابوريتيين على أتباعه الراديكاليين.

7- (م1525 - 1489)، Thomas Müntzer، قس ألماني تزعم المتمردين خلال حرب الفلاحين الألمانية على النبلاء ورجال الدين سنة 1524، أسر عند انهيار الثورة وأُعدِم.

عديـدة في دولٍ شتّى ومنتمين إلى مختلف القوميّات والشـعوب. ونظراً للتعقيـد الـذي حـدث في طبيعة العلاقات الداخليّة وتنوع المنتمين تميّزت هـذه التنظيمات ببعض الفوارق والاختلافاتات والتنافس والتضادات الداخليّـة التي أدّت إلى بروز بعض التعقيـدات والخلافات بين تياراتهـا المختلفـة (من قبيـل الخلاـف النظري بين المحافـل والتنظيمات الـذي يتعلّق بعرق المنتمين، أوبطبيعـة الأفكار، مثل الماسونيين الليبراليين والماسونيين الاشتراكيين، أوالخلافات المنبثقـة عن المشاكل السابقة بين المحافل.) هنا يجب أن نؤكّد أنّ هذه الخلافات – على الرغم من أنّها قد ترتقي لتصبح مشاكل جادّة – ولكنّها لا تنفي أبداً الماهيّة الاستكباريّة المشتركة بين التنظيمات الماسونيّة كافّة، فلا شكّ في أنّها تمثل إحدى الآليات المهمّة لدعم الرأسـماليّة، وأنّ غايتها النهائية (على الرغم من بعض الخلافات) هي بسط سـلطة النزعة الإنسانويّة المستكبرة في العالم.

بقراءة تاريخيـة للتنظيمات والمحافل الماسونيّـة، سواء قبل تأسيسـها الرسـمي في عام (1717 في بريطانيا) أوبعـد تأسيسـها، نرى أنّ لهذه الحركة منذ القرن الثاني عشر وحتّى القرن الثامن عشر توجّهين بارزَين:

1- الدفاع الصريح والقويّ عن الرأسماليّة المُعَلمنة – الإنسانويّة.

كـان هـذا المـذهب (الـذي انتمى اليه كـثيرون من أمثـال «فرانسـيس بيكـون» و «جـون لوك» و «جـون ميلتون» (1) (2)و «لاـيبنيتس» و «بيكوديلا

1- منصوره شيوا كاوياني، آئين قبالا، (القبلانية)، انتشارات فاروان، 1372 ه-.ش، ص 18

2- (م1674 – 1608)، John Milton، شاعر وعالم إنجليزي من القرن 17، يعرف أكثر لقصيدة «الفردوس المفقود».

ميراندولا» و «هوغوغروتيوس» و «اسحاق لوريا» (1) و «جان كالفن» و «مارتين لوثر» و...) ينتصر للرأسماليّة، وطرح مفاهيم وآراء أصبحت في القرن السابع عشر والثامن عشر من أساسيات النظريّة الليبرالية. إنّ هذا التوجّه أوالمذهب يمثّل النزعة الرئيسة والمهيمنة على غالب المحافل شبه الماسونيّة، وإنّ ورثة هؤلاء قاموا بتأسيس الماسونيّة في (1717) وتوسيعها وبقوا مستمرين إلى وقتنا الحاضر.

2- مذهب ضعيف وخافت وغير متنفذ أصبح أكثر ضعفاً منذ قمع الثورة الفلّاحيّة في عام 1525، وليس له أيّ دورٍ في الماسونيّة الرسمية التي تشكّلت في القرن الثامن عشر. بقى هذا المذهب ضعيفاً وانحسر في تجمّعات صغيرة وغير مؤثّرة وبعيدة عن التيار الماسوني الرئيس، وليس له أيّ دورٍ بارز في الوقت الحاضر. كان لهذا المذهب نزعة ومعتقدات اشتراكيّة عرفت فيما بعد بالقوميّة الاشتراكية. من أشهر المنتمين لهذا المذهب هم «يان هوس» و «ويكليف» (2) و «توماس مونتسر» و «فردريش فيختل» (3) و «كارل

1- (م1572 - 1534)، Isaac Luria، اسحق بن شلومولوريا الاشكنازي، حبر ومتصوف يهودي عاش واشتهر ومات في صفد «الجليل» الفلسطينية أيام الدولة العثمانية. يعتبر لوريا المؤسس الحقيقي للقبالة (الكابالا) المعاصرة، ويشار لتعاليمه بالقبالة اللوريانية.

2- (م1384 - 1328)، John Wycliffe، ثيولوجي ومترجم ومصلح مسيحي إنجليزي. عمل مستشاراً لاهوتياً لملك إنجلترا، هاجم سلطة البابا المطلقة، ومبدأ الاستحالة الجوهرية في الافخارستيا. أعظم إسهاماته كان ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية الدارجة. ثارت الكنيسة عليه بسبب ذلك ومنعت نشر الكتاب لاحقاً.

3- لهذا المؤلف كتاب بعنوان: (الماسونية العالمية «بحث عن المنشأ والأهداف النهائية للحرب العالمية الأولي»)، ترجمه للعربية: (عثمان محمد عثمان). يتناول الكتاب التنظيم الماسوني وكيف نشأ وما طقوسه وقوانينه، وذلك بتفصيل شديد، كما يتناول بدايته التاريخية ونموه و انتشاره ثم هيمنته على نظم الحكم وتأليبه للثورات وتحريضه على الانقلابات والاغتيالات في دول أوروبية وأمريكية وتركيا، كما يتناول تغلغل اليهود فيه بإحكام سيطرتهم عليه بعدما يربط بين طقوسه ورموزه والمعتقدات اليهودية.

ماركس» وأعضاء «جمعية العدالة» و «جمعية ثول» (1).

على الرغم من وجود شيء من التقاطع بين هاتين النزعتين إلّا أنّ كليهما يشتركان في الدعوة إلى الحداثة والفلسفة الإنسانويّة، إذ اقتصر الخلاف على تبنّي بعض الشعارات السياسية والثقافية الداعية للعدالة الاجتماعية.

إنّ التيارات شبه الماسونية وكذلك الماسونيّة الرسميّة متجذّرة في التعاليم القبلانيّة، وهي بدورها تعود لتعاليم الشرك لدى الكهان المصريين في عصر الفراعنة (المعروفين ب-«هيرميتيكا»). بعبارة أخرى إنّ كلّاً من المحافل شبه الماسونيّة وكذلك تنظيم الماسونيّة تعتمد التعاليم القبلانيّة (أوما يسمّى بالعرفان اليهودي). ولكن ما هي القبلانيّة؟

يُذكَرُ للقبلانيّة معنيان:

1- القبالة بمعنى التصوّف اليهودي. وفق هذا المعنى فإنّ كلّ ما يُعد تصوفاً في الديانة اليهوديّة (سواء كان صحيحاً أوخاطئاً) هوالقبالة، والمذهب الداعي لها يسمّى ب-«القبلانيّة».

2- يشير المعنى الثاني إلى الآراء العرفانيّة في الديانة اليهوديّة التي بدأت على يد «اسحاق الأعمى» (2) (المنظّر والصوفي اليهودي الفرنسي المتوفى سنة 1235 م). وثمّة يهوديّ آخر يدعى «موسى بن نحمان» (3) وفي اللاتينية ب-«نهمانيدس» (وهومن أهالي مقاطعة

1- Thule Society.

2- Isaac the Blind.

3- (1194 - 1270م)، Nachmanides، كاهن وطبيب يهودي ومن أقطاب القبلانيّة.

كتالونيا الإسبانيّة)، قام ببسط آراء اسحاق الأعمى وشرحها وكتب ما يقارب خمسين كتاباً ورسالةً في هذا المجال. تُعَدّ كتابات «ابن نحمان» إلى جانب كتاب «الزوهار» (1) ل-«موسى دي ليون» من أهمّ النصوص والتعاليم القبلانيّة.

لا تُعَدّ القبلانيّة وفق المعنى الثاني معادلاً لكلّ التيارات العرفانيّة اليهوديّة، بل يعبّ عنها ب-«الكابالّية» أو «القبلانيّة».

عند قراءة تاريخ العرفان اليهودي نكون بإزاء المراحل الثلاث الآتية:

1- مرحلة العرفان الغنوصي

2- مرحلة النهضة الحسيدية الألمانية(2) (3) .

3- مرحلة القبلانيّة التي بدأت على يد اسحاق الأعمى في أواخر القرن الثاني عشر في إيطاليا، واستمرت على يد «موسى بن نحمان» في اسبانيا طوال القرن الثالث عشر، وبلغت ذروتها بتأليف كتاب «الزوهار» بين العامَين (1280 لغاية 1286 م).

1- كتاب الزوهار هوأهم كتب التراث الكابالي أوالقبلانية، وهوتعليق صوفي مكتوب بالآرامية على المعنى الباطني للعهد القديم، ويعود تاريخه الافتراضي، حسب بعض الروايات، إلى ما قبل الإسلام والمسيحية. يُنسَب الكتاب إلى أحد معلمي المشناه الحاخام شمعون بن يوحاي (القرن الثاني)، وإلى زملائه، ولكن يُقال إن موسى دي ليون (مكتشف الكتاب في القرن الثالث عشر) هومؤلفه الحقيقي أومؤلف أهم أجزائه، وأنه كتبه بين عامي 1280 و 1285 .

2- الحاسيديم هي حركة روحانية اجتماعية يهودية نشأت في القرن السابع عشر، وتعود أصولها إلى القرن الثاني عشر.

3- يرى الباحث اليهودي «ايزودر ابستاين» بأنّ القبلانية كانت تراثاً شفهيّاً انتقلت جيلاً بعد جيل بين اليهود العرفاء، وجرى تدوين هذا التراث في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديَين. ينظر: _ايزيدور ابستاين، يهوديت، موسسه پژوهشى حكمت و فلسفه, 1385 ه- ش, 268.

4- الحسيديّة المتأخّرة (الجديدة)

قـد يمكن أنْ نعدّ القبلانيّة بمثابة الإطار العام للفكر العرفاني اليهودي، ولاسـيما أن الآراء والأفكار التي طرحها إسـحاق الأعمى، ومن بعده موسـى بن نحمـان، و التي جُمعَت في كتـاب الزوهار (المعبّر عنه ب- كابالا) هي النواة الأساسـيّة والوجه الغالب للعرفان اليهوديّ، وعند البحث في موضوع العرفان اليهودي يجب التركيز في هذا الجانب.

إنّ كلمـة (كابالا) تلفظ في العِبريّـة ب-«كباله»، وفي العربيـة ب-«قبالة» و «قبالا»، وهي مأخوذة من الأصل العبري (qbl) بمعنى القبول. (1) وفي المعنى الاصـطلاحي يـدلّ هذا المفهوم على التعاليم العرفانيّة والرمزيّة في الديانة اليهودية. لقد أطلِق هذا المصـطلح منذ بدايات القرنين الثـالث عشـر على التيـار العرفاني في الديانـة اليهوديـة، وأصـبحت القبلانيّـة مرادفـة للعرفان اليهودي. على الرغم من أنّ النصوص القبلانية دوّنِت في نهايات القرن الثاني عشـر وطوال القرن الثالث عشـر، ولكنّ جذورها النظريّة تعود للفلسـفة الأفلاطونيّة المحدَثة وبعض التعاليم الشـركيّة للحضارات الشرقيّة. (2) مع ذلك يمكن أنْ نُرجع الأصول الجوهريّـة في القبلانيّـة إلى عقائـد الكهنـة في مصـر الفرعونيّة القديمة التي تسمّى ب-(المتون الهرمسيّة) (3) .

1- لمعرفة المزيد عن علاقة الهرمسية بالقبلانية ينظر: Geaves, Ron,/ continuum glossary of Qabbalah terms, New York, 2000

2- يقول الباحث: بين المصادر الفارسـية قد يكون المصدر الآتي نافعاً لفهم ماهية دين الفراعنة: تيموتي فرك، بيتر غندي، هرمتيكا حكمت مفقوده فرعونان، فريدالدين رادمهر، نشر مركز، 1384 ه-.ش.

3- Hermetica، المتون الهرمسـية، أوالهرموتيكا، هي مجموعـة كتب حكم يونانيـة فرعونية كتبت ما بين القرنين الثاني والثالث الميلادية وتتناول مواضـيع حياتية وفلسفية باسلوب تخاطب ما بين معلم، وهوهرمس الهرامسة، ومريديه الطالبين للمعرفة. والمتون هي أساس الفكر الهرمسي.تشمل مواضيع المتون الله، الكون، الفكر، والطبيعة. وبعضها يتطرق للخيمياء والتنجيم وما يتعلق بهم.

بعبارة أخرى إنّ ما روّج له في القرن الثاني عشر والثالث عشر في كتاب (الزوهار) هوقراءة جديدة بنزعةٍ إنسانويّة للآراء الهرمسيّة بنزعة الفلسفة الأفلاطونيّة المحدثة، وقد لاقت رواجاً واسعاً لدى أنصار المدرسة الإنسانويّة. ومن هنا يمكن أن نرى المزج المتقَن بين العقائد الإنسانويّة في عصر التنوير مع عقائد القبلانيّة والتراث الهرمسي الفرعوني الممزوج بالشرك. وبهذا تكون الأسس النظرية الموحدة للفكر الغربي متجذرة في القبلانيّة والهرمسيّة.

إنّ القبلانيّة هي مجموعة من الأفكار الشركيّة التي غلبت عليها النزعة الإنسانويّة في نصوصها المكتوبة في القرن الثالث عشر. أمّا على الصعيد الأنطولوجي فإنّها مبنيّة على وحدة وجودٍ (علمانيّة – شركيّة) تعدّ الإنسان والله من سنخٍ واحد ومن ذاتٍ واحدة، وبالتالي تنكر أنْ يكون الإنسان مخلوقاً والله خالقاً. على الرغم من أنّ القبلانيّة هي الوجه الرئيس للعرفان اليهودي ولكنها مبنيّة على أسس ممزوجة بالشرك تلقاها اليهود في أيّام الحضارة الفرعونيّة من كهنة المعابد. تشير الروايات التاريخية بأنّ نبيّ الله موسى عليه السلام بصفته مبشّراً بالتوحيد قد تصدّى بهذه العقائد الشركيّة (المعروفة بالهرمسيّة)، فضلاً عن ذلك فإنّ عبادة العِجل لدى بني اسرائيل (عجل السامري) تعود للعقائد الهرمسيّة الممزوجة بالشرك. إنّ مثل هذه العقائد الشركيّة الفرعونيّة تمثّل الأسس الفكرية والعقائدية للقبلانيّة. (1) إذ أنّ المدرسة القبلانيّة التي راجت خلال القرن الثالث عشر في كلٍّ من إسبانيا وايطاليا تعتمد أفكاراً ممزوجة من الفلسفة الأفلاطونيّة المحدثة والهرمسيّة، وقد أعيدت قرائتها من

1- هارون يحيى، فراماسونري جهاني، (الماسونية العالمية)، ص 64 و 65 و 66 و 67 و 69 .

منطلقـات إنسانويّـة، وقـد تكفّـل هـذه القراءة فلاسـفة وشـعراء من أمثال «بيكوديلا ميرانـدولا» و «نقولاس الكوزاني» و «كوبرنيك» وأتباع الآكاديميـة الأفلاطونيّة في فلورانسا. وقد انعكست الروح الإنسانويّة المكتنفة بالرموز والعقائد اليهوديّة في أعمال دافينشـي و «بوتشـيلي» و «جون ملتون» و «شـكسبير» وفي آراء «مارتن لوثر» و «جان كالفن» و «فرنسـيس بيكون» و «جوردانوبرونو»، وعدد كثير من مفكري عصـر التنوير والعصور اللاحقة له.

إنّ العلاقـة بين الإنسانويّـة والقبلانيّة مؤكّدة في مصادر مختلفة. من هذه المصادر كتابٌ للكاتب الشـهير «مالاتشـي مارتن» (1) المعنوَن: (مفاتيـح من هذا الدم) (2). يرى مارتن في كتابه هـذا بأنّ أثر القبلانيّـة واضـحٌ في عقائد الإنسانويين الذين برزوا في إيطاليا في أوائل عصـر التنوير، إذ كـانوا يرومون الهروب من الأـجواء السياسـية والاجتماعيـة المشـحونة بالصـراعات وأسـسوا من أجـل ذلك تجمّعات تتبنى آراء إنسانويّـة. لقـد تبلور في هذه التجمّعات مجموعة من العقائد عُدَّت علماً سـرّيّاً لمجموعة من الأحكام الغنوصـيّة المسـتمدّة من حضارات شمال افريقيا – لاسـيما الحضارة المصريّة – وكذلك من القبلانيّة الكلاسيكية لدى اليهود. لقد قام الإنسانويون الإيطاليون بتشذيب العقيدة القبلانيّة، وغيّروا فيها كثيراً، وحدّثوا مفهوم الحكمة الغنوصـيّة وحولوه إلى مفهوم يعاصرهم. إنّ الحكمة الغنوصيّة التي كانوا ينشدونها كانت علماً سـرّيّاً يهـدف إلى السـيطرة على القوى الطبيعيـة لتحقيق أغراضٍ اجتماعيّـة وسياسـيّة. خلاصة القول هوأنّ التجمّعات الإنسانويّة التي تألّفَت في تلك الحقبة كانت تدعوإلى

1- (م1999 – 1921)، Malachi Brendan Martin، كاهن كاثوليكي ايرلندي في الفاتيكان.

2- The Keys of This Blood.

استبدال الثقافة المسيحية الأوروبيّة بثقافة جديدة مستمدّة من القبلانيّة، وقد بادروا إلى إيجاد تغييرات اجتماعيّة وسياسيّة لهذا الغرض... ولذلك ظهرت منظمةٌ ماسونيّة إنسانويّة في أوربّا في القرن الرابع عشر تتبنى العقيدة القبلانيّة. إنّ المنتمون لهذه المنظمة ما كانوا كاليهود والنصارى والمسلمين ليؤمنوا بالله الأحد الخالق والحاكم المطلق على الكون. بل عبّروا بدلاً من الذات الإلهيّة بمفاهيم أخرى مثل «مهندس عظيم للكون» (1)، وعدّوه جزءاً من العالم المادّي.

بنظرة فاحصة لمجموعة النصوص الماسونيّة نرى أنّ هذه المنظمة ليست سوى إنسانويّة جرى تأطيرها في منظّمة ترنو إلى بسط النزعة الإنسانويّة والعلمانيّة في العالم. (2)

إنّ الماسونيّة هي منظمة إنسانويّة لخدمة الغايات الاستكباريّة للعالم الغربي الحديث، وتستمد أصولها الفكريّة من التعاليم القبلانيّة. عند دراسة العلاقة الكامنة بين الماسونيّة والأيديولوجيات الحداثويّة نرى أنّ الليبرالية الكلاسيكية والليبرالية الجديدة تمثلان النظريتين الأقرب صلةً للماسونيّة، وببيان أدقّ نقول إنّ الليبرالية بنسختيها الكلاسيكية والجديدة مولودة من رحم الماسونيّة، إذ أن الليبرالية ولدت في المحافل الماسونيّة، وترفع شعارات ماسونيّة.

يمكن أنْ نوجز الأسس الفكريّة للماسونيّة في النقاط الآتية:

1- الاعتقاد بوجود إلهٍ صانع ساعات وكذلك الاعتقاد بالربوبيّة

1- Great Architect of the Universe.

2- جيمز. أ. كوريك، رنسانس، (التنوير)، ت:آزيتا ياسايي، مصدر سابق، ص 25 .

(Deism) بمختلف أشكالها؛ (في نماذج أخرى من الماسونية يكون الاعتقاد بالماديّة أوالإلحاد بديلاً من الربوبيّة وفرضية الإله صانع الساعات).

2- العلمانيّة ذات النزعة الإنسانويّة وفصل الدين عن الدولة.

3- نظرية التقدّم

4- نظرية التسامح والتساهل

5- ترويج نظرية التعددية الدينية بين المعتقدين بالأديان السماويّة

6- الاعتقاد بالنظام الرأسمالي الحديث بصفته قمّة «التقدّم» و «التطوّر»!

7- الاعتقاد بشعار «الحريّة، والمساواة، والأخوّة»

8- الفردانيّة ونظرية حقوق الإنسان ذات النزعة الفرديّة

إنَّ مفهوم «الحُريّة» في العقيدة الماسونيّة يستبطن نزعةً فردانيّة ورأسماليّة، وهذا دليل على العلاقة الوثيقة بين العقيدة الماسونيّة والنظريّة الليبرالية. فضلاً عن ذلك فإنّ مفهوم «المساواة» الذي تتبناه العقيدة الماسونية يتضمن ماهيّة ليبرالية. إنّ لهذه المساواة ظاهراً قانونيّاً وحقوقياً ومن القضايا المحوريّة في النظرية الليبرالية والليبرالية الجديدة. بيد أنّ مفهوم «المساواة» هذا يحتوي على عدم مساواة وظلم مطلق، وإنّ المساواة القانونيّة الظاهريّة هي لغرض إخفاء تلك اللامساواة المستبطنة.

إنّ الليبراليين يؤكّدون في كلّ توجهاتهم السياسية (ولاسيما في

القرنَين الثامن عشـر والتاسع عشـر) على مفهوم «المساواة»، وإنّ هذا التأكيد مستمر إلى الآن. إنّ باطن هذا بالشعار الذي يرفعه الليبراليون يعتمد مضامين ماسونيّة. (1) فعلى سبيل المثال نجد زعماء الثورة الفرنسـيّة الليبراليين اسـتبدلوا الشعار الرئيس للثورة «الحريّة، والمساواة، والأخوّة». إنّ الماسونيين انتظموا في محافل ومجاميع كبيرة ومتنوعة، وفي الوقت نفسه منسـجمة، وكان أحدهم يخاطب الآخر ب-«الأخ»، وهم يتبعون نمطاً مؤسـساتيّاً موحداً ملتزمين بنظامٍ منضبط. ومن هنا نجد النشاطات الثقافية والسياسية التابعة للماسونيّة في الدول المختلفة تتبع نظاماً وحداً (وخفيّاً في أغلب الأحيان)، ويدعمون بعضهم بعضاً. إنّ جوهر الأخوّة في المحفل الماسوني بهدف دعم الأعضاء لتحقيق الأغراض الماسونيّة ذات الطابع الشيطاني.

إنّ في الليبرالية الكلاسـيكيّة والليبراليّة الجديدة تماثلات كثيرة مع العقيدة الماسونيّة. فضـلاً عن أنّ غالب الليبراليين والليبراليين الجُدد كانوا ينتمون لمحافل ماسونيّـة. إنّ زعماء الثورة الفرنسـية الليبراليين من أمثال «ميرابو» و «بريسو» و «رونالد» و «بيتون» وكذلك الليبراليون الذين قادوا الثورة الأمريكيـة من أمثال «جورج واشـنطن» و «توماس جفرسون» و «الكساندر هميلتون» و «بنيامين فرانكلين»، حتّى روّاد الثورات الليبراليـة - ذات النزعـة التطهيريّـة خلال القرن السابع عشـر في بريطانيا، كلّ هؤلاء كانوا ماسونيين. إنّ «جون لوك» الـذي يَعدّه الكثير من مؤرخي الفلسفة (أباً لليبرالية) كان ينتمي لمحافلَ شبه ماسونيّة في بريطانيا وهولندا خلال القرن السابع عشر.

1- Martin, Marco/ Riguarda Framoseneria/ Millan/ 2001/ pp. 19_37.

وكـذلك «مونتسـكيو» و «فولتير» و «هلوسـيوس» الـذين ساهموا بشـكلٍ كبير في إرساء قواعـد الفكر الليبرالي كانوا من الماسونيين. إجمالاً يمكن القول إنّ الأيـديولوجيا الليبرالية الكلاسـيكية ولدت من رحم المحافل الماسونيّة، وهوينطبق أيضاً على الليبرالية الجديدة وروّادها من أمثال «هايك» و «فريدمان» و «بوبر» و «برلين».

إنّ الآراء الماسونيّة تشـكّل الركيزة الأساسـيّة التي تستند إليها الليبرالية الكلاسيكية، وإنّ أغلب منظّري الليبرالية ينتمون لمحافل ماسونيّة. إنّ ما نروم توكيـده بهـذا الصـدد هي قضـيّة العلاقة بين آراء القبلانيّة اليهوديّة والليبرالية الكلاسـيكية. ما نقصده من القبلانيّة والعرفان القبلاني يتمثّـل بالتعاليم والآراء التي وردت في نصوص كتاب «الزهار» الـذي كُتِب في القرن الثالث عشـر الميلادي وفي غيرها من النصوص. لقد كان هـذا النظام الفكري سائـداً خلال عصـر التنوير الإيطالي، وكان الأساس النظري لمناهـج «الأكاديميّـة الأفلاطونيّـة في فلورانس» التي أسسها «كوزيمودمديسي» (1) سنة (1439) وهورأسـماليّ إيطالي. إنّ كلّاً من «لورنزوفالا» و «بيكودلا ميراندولا» و «مارسيليوفيجينو» و «نقولاس الكوزاني» و «غيلام بوده» (الذي أسـس في سنة 1530 جامعـةً لترويـج الفكر والثقافة الإنسانويّة في فرنسا، التي كان يُدَرَّس فيها اللغة العِبريّة) (2) وكذلك الوجوه البارزة والنافذة في أسـرة مديتشـي، ودسيدريوس اراسموس، فارنشيسكو بتراركا، جيفاني بوكاتشيو، وغيرها من الشخصـيات المؤثرة والفلسـفيّة والثقافيّـة في التنوير الإيطـالي، وفي أوروبـا الوسـطى؛ كـلّ هؤلاء كانوا متأثرين ومؤمنين ب-«القبلانيّة اليهوديّة»،

1- Wood, W/ John Lock, Life and Political Thought/ English University/ pp7_11.

2- Ib. Id/ P.92.

وإنّ بعضاً منهم من أمثال (ميراندولا) سعى لتأسيس قبلانيّة مسيحيّة.

يمكن تلخيص القراءة القبلانيّة للكون كالآتي: (وقبل ذاك نرجومن البارئ واسع المغفرة أنْ يغفر لنا استعراض هذه الرؤية الشركيّة، وكذلك نعتذر لعباده المؤمنين، فالغاية من ذكرنا هذه الآراء هي توضيح هذه العقيدة).

إنّ الله – وفق العقيدة القبلانيّة – يتجلّى، وإنّ تجلّيه الخَفيّ يكون بصورة الإنسان، (بصورةٍ فرديّة وجمعيّة، وفي المجتمعات وعلى مدى التاريخ). في بادىء الأمر هنالك وحدة وانسجام بين الذات الإلهيّة الأزليّة التي تُسمّى في العِبريّة ب–«عين سوف» (1) وتجلّيه الذي يعبَّر عنه ب–«شيخينة». ولكنّ الذنوب وكذلك هبوط الإنسان أدّى إلى حدوث فواصل بين الذات الأزليّة والإنسان، وبهذا يُنفى الإنسان. (إنّ نفي بني إسرائيل يمثّل نموذجاً لنفي الإنسان. لأنّ حقيقة الأخير وفق العقيدة القبلانيّة تتجلى في الفرد اليهودي فقط.) وبهذا تتقوّض عقيدة وحدة الله (والعياذ بالله) ويحدث فيها شرخٌ كبير ويظهر الفساد. ترى العقيدة القبلانية أنّ هذا الشرخ والابتعاد هو إقصاء للشرّ، وتعبّر عن ذلك ببيان ممزوج بالكفر قائلةً: إنّ هذا الشَّر (والعياذ بالله) هونتيجة لوجود الشر في الذات الإلهيّة، إذ يمثّل أحد أوجه تلك الذات!

إنّ الإنسان وفق العقيدة القبلانيّة هوشريك الله (والعياذ بالله)، وإنّ الله محتاج إلى الإنسان، وإنّ وظيفة الإنسان تتمثل بإعادة تلك الوحدة الباطنيّة بينه وبين الله، وملء الفراغ ومعالجة هذا الشرخ، ويستند كلّ ذلك إلى إرادة الإنسان. لأنّه وفق العقيدة القبلانيّة هوالوجه الرئيس

1- «Ein Sof", or "Ayn Sof".

ل-«شـيخينة»، (أي التجلّي العيني ل-«عين سوف»). من هنا يـدّعي القبلانيون أنّ الإنسان هوجزء من ذات الله، وبما أنّ هذه العقيدة مبنيّة على نزعـة عنصـريّة وتعدّ قوم اليهود ممثلاً للباطن الإنساني الأصـيل، لذلك تدّعي أنّ هؤلاء القوم (أي اليهود) هم جزء من ذات الله. ومن هنا عدّوا نفي اليهود من أورشليم خلال فترة التجسيد القديمة تطبيقاً لفكرة تجزئة الله. وإنّ عودتهم إلى الأرض الموعودة تعني إعادة الوحدة إلى باطن الـذات الإلهيّـة! إن عودة «شـيخينة» (الجانب الأنثوي في الذات الإلهيّة وفق التعاليم القبلانيّة!) إلى «عين سوف»، وكذلك تحقق الوحدة في الذات الإلهيّة تتحق بعودة اليهود إلى الأرض الموعودة، وبتحقق وحدة الله سـيعمّ العالم النظم والهدوء، وسـتنتظم كلّ الأمور. لـذلك ترى القبلانيّـة أنّ وجـود اليهود وعملهم وعودتهم للأـرض الموعودة وحركتهم في هـذا الاتجـاه هوعامـل رئيس لتحقيق التوازن في العـالم ولتحرير الإنسان وتنظيم أموره. الإنسان (أوبالأَحرى الفرد اليهودي) قادرٌ على القيام بمهامّه ومساعـدة الله من أجل تحقيق وحـدته الباطنيّـة، ولاـ يحتـاج إلى أيِّ مساعـدة من الله؛ بـل يعتمـد سـلوكه المبنيّ على نوع من التصوّف الجنسـي (وهونوع من التصوّف الكـاذب الإبـاحي) والتساهل والتسامـح، وعن طريق تفعيل رأس المال وتفضـيله، وهي طريقـة تؤدّي إلى سـيطرة اليهود، (لأنّ الرأسـماليّة العلمانيّة الحداثويّة هي نتاج سـيطرة المنظور اليهودي للمال والربا والاستثمار) وتعوّل على الإنسانويّة التي يتمثّل جوهرها بمعصية الله وعدّه شريكاً للإنسان. إنّ مثل هـذا الإنسان باعتماده المنهجيّـة آنفة الذكر قادرٌ على العودة إلى الأرض الموعودة واسـتعادة الوئام (تيكون/الخلاص). إنّ النظرة الدينية المتماشية مع هذا القراءة للعالَم والإنسان وعلاقتهما مع الله تتمثل بالنظرية الربوبيّة (Deism)

التي اعتمدها وروّج لها الفلاسفة اليهود وكثيرٌ من الليبراليين في عصر التنوير. إذن على وفق المزاعم القبلانيّة فإنّ اليهود باعتمادهم النمط الرأسمالي في العيش ورفع شعار التسامح والتساهل، ومن خلال السلوك الجنسي الغامض، وبالتالي الاستقرار في الأرض الموعودة وإعادة بناء المعبد سينقذون البشريّة جمعاء، ويوحدون الذات الإلهيّة! (والعياذ بالله). إنّ الإنسان (على وفق التعاليم القبلانيّة) يستطيع أن يتقدّم في مسيرة المعرفة مستقلاً وأن يحصل على كامل المعرفة، وإنّ الوصول إلى هذا الكمال المعرفي يقتضي منافسة الله ومعارضته (والعياذ بالله). إن الذنب والخطيئة وارتكابها وفق المنظور القبلانيّ هي من حقّ الإنسان. (1)

كما نرى فإنّ الأصول المحوريّة المتعلّقة بالأيديولوجية الليبرالية مستمدّة من التعاليم القبلانيّة، وبهذا تكون الليبرالية (على الصعيد النظري) مرهونة بالعقيدة القبلانيّة ومتمخّضة عنها.

حول الجانب الأيديولوجي

إنّ كلّاً من «الليبرالية الكلاسيكية» و «الديمقراطية الإشتراكية ذات التوجه الليبرالي» و «الليبرالية الجديدة» تمثّل ثلاثة أيديولوجيات مختلفة ومتفاوتة، وفي الوقت ذاته تنتمي كلّ منها لأسرة واحدة وتجتمع تحت مظلّة أيديولوجيّة واحدة يمكن أنْ نعبّر عنها ب–«اللبرلة الديمقراطية». إنّ اللبرلة الديمقراطية ليست أيديولوجية واضحة المعالم بقدر ما هي مظلّة أومنظومة من المفاهيم الأساسية للنظرية الليبرالية التي انصهرت في الخطاب الديمقراطي الفردانيّ

1– موريس كرنستن، انديشه هاى سياسي، (الأفكار السياسية)، ت: جنكيز بهلوان، بابيروس، 1366 ه–.ش، ص 67 و 68.

والإنسانوي. ولأنّ الليبراليات الثلاث آنفة الذكر تجتمع تحت هذه المظلّة الأم فيمكن أنْ نعدّ كلّاً منها بمثابة أبنائها المتفاوتين، ولكن على الرغم من الاختلاف الموجود بين هذه الثلاث إلّا أنّ في كلّ منها مشتركات أساسيّة تجعلها قريبة من الأخرى تتمثل ب-: «الفردانيّة» و «الحريّة - بمفهومها الليبرالي» و «أصل الملكيّة» (غير المحدد وغير المشروع وبمنظورٍ رأسمالي)، ومفهوم «حقوق الإنسان» و «النظام البرلماني» و «الفصل بين السلطات».

إنّ الفلسفة الإنسانوية ولّدت بعضاً من الأيديولوجيات، منها فكرة اللبرلة الديمقراطية التي أصبحت مظلة تجمع الليبرالية بأنماطها الثلاث، إذ مدّتها بالمفاهيم الأصليّة المشتركة برغم وجود بعض الاختلافات في بعض مفاهيمها الأخرى.

تتمثّل بعض هذه الفوارق في المجال الأخلاقي، إذ تؤمن الليبرالية الكلاسيكية ببعض الثوابت الأخلاقيّة، على عكس الليبرالية الجديدة التي تروّج للنسبيّة في الأخلاق. ومن جانب آخَر تؤمن الليبرالية الكلاسيكيّة بنوعٍ من الأحادية (1) الثقافية، في الوقت الذي تدعو الليبرالية الجديدة إلى التعددية (2) الثقافية. هذا وقد يتمثل الاختلاف الثالث بمفهوم العقل التجريبي الذي يُعَد الأساس الابستمولوجي وتارةً الأخلاقي في النظرية الليبرالية الكلاسيكية، في حين ليس للعقل التجريبي مثل هذه المكانة في الليبرالية الحديثة. وعلى صعيد متصل يتقلّص المفهوم الليبرالي لكلٍّ من الفردانيّة والحريّة

1- Monism، الأحادية أوالواحدية أوالوحدانية هي نظرية ففية تقول أن الأشياء المتنوعة الموجودة في الكون تتكون من مادة واحدة وبهذا تكون خاصية الكون الأساسية هي الوحدة. تتعارض هذه النظرية مع الثنائية التي تقول بوجود واقعين (مادي وفكري) أوالتعددية التي تقول بوجود أكثر من مادتين.

2- Pluralism.

إلى حـدّ ما في الديمقراطية الاشتراكية ذات التوجه الليبرالي، وهوأمرٌ مرفوض تماماً في الليبرالية الكلاسـيكية والليبرالية الجديدة. وكذلك قد نرى تراجعـاً ملحوظـاً لسـيطرة سوق العمل في الديمقراطيـة الاشتراكيـة ذات التوجه الليبرالي، وذلك بحسب بعض المقتضـيات وفي بعض الأماكن فقط، في حين لا يوجد هذا التراجع في الليبرالية الكلاسـيكية ولا في الليبرالية الجديدة. حتّى الآراء الماركسيّة قد تكون حاضرة في الديمقراطية الاشتراكية، ولكن يستحيل اعتمادها في الليبرالية الكلاسيكية والجديدة.

على الرغم من كلّ هـذه الاختلافات فإنّ هذه الأيديولوجيات الثلاث تجتمع تحت مظلّة فكريّة واحدة تتمثل باللبرلة الديمقراطية، وإنّ هذا التقارب يكون أكثر وضوحاً في الليبرالية الكلاسيكية والليبرالية الجديدة.

ثمّة حقولٍ أيديولوجيّة أخرى تندرج تحت الفلسفة الإنسانويّة الحداثويّة، منها (الجماعيّة (1) العرقيّة – القوميّة اليمنيّة) التي أفرزت (الفاشيّة والاشتراكيّة القوميّة)، وكذلك النظريات المؤدلجة التي ولّدت (الماركسيّة بمختلف أنماطها، والجيفاريّة، والاشتراكيات الثوريّة المتطرفة غير الماركسية).

إنّ الليبراليـة الكلاسـيكية بصـفتها الأيديولوجية الأولى والمهيمنة في العالم الحديث، تركت أثراً كبيراً في التاريخ الغربي الحديث، ولَمْ يكُن تأسيسها على يد فيلسوفٍ واحدٍ بعَينه، بل هي تيّار يشمل

1- Collectivism، المصطلح المستخدم لوصف أي وجهة نظر أخلاقية أواجتماعية أوسياسية تشدد على أهمية التواكل المتبادل بين أفراد المجتمع. والجماعيون بشكل عام يرغبون بإعطاء أولوية لأهداف المجتمع كافة فوق أهداف الفرد.

مجموعة من الآراء والأفكار الفلسفيّة والاقتصاديّة التي ظهرت في القرن السادس عشر، من دون أنْ تتعمد في تحقيق غاية محددة. لقد قدّم «جون لوك» في القرن السابع عشر صورة منسجمة من المفاهيم التي أصبحت لاحقاً النواة الأساسيّة لنظريّة تدعوإلى الحريّة الفرديّة وعرفت بالليبرالية الكلاسيكيّة، ولكنّه من دون أنْ يهدف إلى تأسيس نظريّة معيّنة، إذ كان يسعى لتحقيق مجموعة من الغايات الاقتصاديّة والسياسيّة لطبقة اجتماعيّة معيّنة. لذلك يرى أغلب مؤرخي الأفكار أنّ «جون لوك» هو رائد النظريّة الليبرالية، وهو رأي صحيح.

لقد تطوّرت الليبرالية الكلاسيكية بعد لوك، وتناولها العديد من الفلاسفة والمفكّرين طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، وللوقوف على آراء أبرزهم نشير إلى آراء (لوك)، وثلاثة فلاسفة آخرين. ونؤكّد أنّ رعاية الايجاز منعنا من إيضاح آراء أقطاب الليبرالية الكلاسيكية من أمثال «آدم فرغوسن» و «ماندويل» و «بنيامن كونستان» (1) و «جيريمي بنثام» و «جون ستيوارت مل» (2)، وكذلك الفيلسوف المؤثّر الليبرالي الأهم «عاموئيل كانط»، وإنّ عدم تناول آراء سائر الفلاسفة لا يعني عدم اعتنائنا بدورهم في بلورة الليبرالية الكلاسيكية.

أ- «جون لوك»، تطهيريٌّ ليبراليّ، ومالك عبيدٍ يدعو إلى حقوق الإنسان!

ولد «جون لوك» في (29/ آب/ 1632م) في منطقة قريبة من مدينة «بريستول» في بريطانيا. كان والده محامياً يساند البرلمان في أيّام

1- (م1830 - 1767)، Benjamin Constant، مفكّر وكاتب وسياسي فرنسي.

2- (م1873 - 1806)، John Stuart Mill، فيلسوف واقتصادي بريطاني.

الحرب البريطانيّة الداخلية، وكان من أنصار التطهيريين المنضوين تحت راية «كروميل» ضدّ الملك «تشارلز الأوّل». بانتصار جبهة البرلمان في الحرب الداخليّة نالت أسرة «لوك» مكانة اجتماعيّة مرموقة، وقد تمكّن «لوك» من الالتحاق بمدرسة «وستمنستر» (1) (التي كانت من أفضل المراكز التعليمية في بريطانيا وقتئذ، ولا يدخلها إلّا أبناء العوائل المتنفذة والثريّة)، وبعدها درس في كليّة «كريستشيرش» التابعة لجامعة آكسفورد.

شرع «لوك» في بادئ الأمر بتعلّم اللغات الأوروبية الكلاسيكية واللغة العربية، ولكنّه عند التاسعة والعشرين من عمره توجّه لتعلّم الطب. تعرّف في عام (1662) إلى «اللورد آشلي» (2) الذي كان دوق شافتسبري، وإنّ هذه العلاقة حسمت مستقبل لوك ومسيرته الفكريّة. كان «اللورد آشلي» من المنتمين للطبقة الرأسمالية الناشطة في المحافل شبه الماسونيّة التي كانت على صلةٍ بالمحافل الأوليغارشيّة اليهوديّة وتجمّعاتهم السريّة في آمستردام. كان هؤلاء يمثّلون التيّار الرأسمالي في الحركة التطهيريّة البريطانيّة، ويعملون على محاربة سلطة الستيوراتيين (3) ومناهضة دعوتهم للكاثوليكيّة.

كان «لوك» الطبيب الشخصي ل-«اللورد آشلي» ومستشاراً له، ومنظّراً للآراء الليبرالية المطروحة في المحافل شبه الماسونيّة،

1- Westminster.

2- (م1621 - 1683)، Anthony Ashley-Cooper, 1st Earl of Shaftesbury)، أنطوني آشلي كوبر، إرل شافتسبري الأول، عُرف باسم السير (أنطوني آشلي كوبر, البارونت الثاني, من 1631 إلى 1661 وباسم اللورد آشلي من 1661 إلى 1672. كان سياسياً إنكليزياً بارزاً في الفترة بين الملوك وأثناء حكم الملك تشارلز الثاني. وربما يكون أهم ما اشتهر به هوأنه كان راعي جون لوك.

3- الستيوارت (Stuart): أسرة من أصول بريتانية-اسكتلندية (نسبة لمقاطعة بريتاني في فرنسا) حكمت في أسكتلندا ثم بريطانيا سنوات منذ 1371 وحتى 1714 م.

وكـذلك كان مفكّراً للتيار الرأسـمالي في الحركة التطهيريّة ذات النزعة اليهوديّة في بريطانيا، وبقي ملازماً ل-«آشـلي» حتّى وفاة الأخير في عام (1683م) (1).

يُعـد «جون لوك» المنظّر الرئيس لـل-«الليبراليـة الكلاسـيكية» الـذي لم تقتصـر جهوده في الجـانب الفكريّ وحسب، بل عمل على دعم المصالح الرأسماليّة للحركة التطهيرية في بريطانيا ونشر الآراء الليبرالية.

كان «جون لوك» عضواً في نقابـةٍ عُرِفَت ب-(الكليّة الخفيّة) (2) التي جمعت عـدداً من المفكّرين والكتّاب و العلماء الطبيعيين الذين كانوا على علاقـة وثيقـة بالأوليغارشـيّة اليهوديّة، وكانوا يؤمنون بتعاليمٍ تكتنفها الألغاز والرموز. لقد اسـتطاعت هذه الكلّية أن تؤسـس «الجمعيّة الملكيّة» في عام (1645م). وكانت هـذه النقابة تعمل لتحقيق مصالح الطبقة الرأسـمالية البريطانيّة، وقد حذت الجمعيّة الملكية البريطانيّة حذوها واسـتمرّت في دعم الرأسماليّة. إنّ كلّاً من «اسحاق نيوتن» و «روبرت بويل» (3) و «روبرت هوك» (4) الذين كانوا من أبرز العلماء الطبيعيين، ينتمون للكليّة الخفيّة، وإنّ

1- موريس كرنستن، انديشه هاى سياسى، (الأفكار السياسية)، مصدر سابق، ص 66 .

2- Invisible College، الكلية الخفية أوالكلية غير المرئية هي الأصل الممهد للجمعية الملكية في المملكة المتحدة. وكانت تتألف من مجموعة من «فلاسـفة الطبيعية» (عرفوا فيما بعد بالعلماء) منهم روبرت بويل، جون ويلكنز، جون واليس، ايفلين جون، روبرت هوك، ورين كريسـتوفر ووليـام بيتي. واسـتعمل هـذا الاسـم لأول مرة في رسائل بويل التي كتبها بين عامي 1646 و 1647، وأشـار إلى «كليتنتا غير المرئية» أو «كلية فلسفتنا». والجامع المشترك للمجموعة كان اكتساب المعرفة من خلال التحقيق التجريبي.

3- (1627- 1691) ،Robert William Boyle، فيلسوف طبيعي، كيميائي، فيزيائي ومخترع.

4- (م1635-1703)، Robert Hooke ، فيلسوف طبيعي ومعماري وعالم موسوعي إنجليزي وعضوالجمعية الملكية.

نيوتن الـذي كان يهوديّاً هومن مروجي العلمانيّـة الإنسانويّة ونظرية الربوبيّة (1) وغايات صـهيونيّة أخرى. لقد انتمى «جون لوك» للجمعيّة الملكيّة في عام (1688م)، وكتب بعد انتمائه مقالاً عن التسامح (2) ، دعا من خلالها إلى الليبرالية بإطارٍ ماسوني، ودافع عن فكرة (التسامح الـديني) ومنح حقّ المواطنة لليهود. (3) اللافت للنظر هوأنّ «لوك» على الرغم من أنّه كان من دعاة التسامـح الـديني ومنـح حقّ المواطنة لليهود، ولكنّه كان من أشـدّ المعارضـين لفكرة التسامـح مع الكاثوليكيين الـذين كانوا يمثلون في تلك الحقبـة الجبهـة المخالفـة والمناوئة للمذهب السياسي الذي يؤمن به لوك والمحفل الرأسمالي الماسوني المنتمي إليه (4).

على الرغم من أنّ «لوك» كان من دعاة الليبراليـة و «حقوق الإنسان»، (وهي فكرة مسـتمدّة من القراءة الإنسانويّـة للـذات البشـريّة، والقراءة العلمانيّة الرأسماليّة للعلاقات الإنسانيّة المتعارضة مع الحقوق والواجبات الدينية والآراء الأخلاقيّة للكنيسة الكاثوليكيّة)

---

1 – Deism، الربوبيـة، هي مـذهب فكري لاـ ديني وفلسـفة تؤمن بوجود خالق عظيم خلق الكون وبأن هـذه الحقيقـة يمكن الوصول إليها باستخدام العقل ومراقبة العالم الطبيعي وحده دون الحاجة إلى أي دين.

On Toleration. –2

3– شرف الدين خراساني، از برونوتا كانت، شركت انتشارات علمي وفرهنكي، 1376 ه–.ش، ص 136 .

4– ينظر على سبيل المقال: Wood, W,John Look, Life and Political thought, p. 163. وكذلك: – شرف الدين خراساني، از برونوتـا كـانت، (من بورنوإلى كانت)، ص 130. – كمال پولادى، تاريـخ انـديشه سياسـي در غرب از ماكياولي تا ماركس، (تاريـخ الفكر السياسـي في الغرب، من ميكيافيلي إلى ماركس)، نشر مركز، 1382، صص 57 ، 65 – 63 . – آنتوني آربلاستر، ظهور وسقوط ليبراليسم غرب، (بزوغ الليبراليـة الغربيـة وأفولها)، عباس مخبر،نشـر مركز، 1367 ه–.ش، ص 248. – برتراند راسل، تاريـخ فلسـفه غرب، (تاريخ الفلسفة الغربية)، نجف دريا بندري، كتاب برواز، 1390 ه–.ش، ص 785.

فإنّه كان يعمل في مجال تجارة العبيد، ومن المساندين لفكرة بسط الاستعمار البريطانيّ في القارّة الآسيويّة. يرى «موريس كرنستون» (1) في دراسته لآراء «لوك» بأنّ هذا الفيلسوف هو «رائد الإمبرياليّة البريطانيّة». فهوفي النصف الثاني من القرن السابع عشر يُعَد منظّر الليبرالية الكلاسيكية وزعيمها الأوّل، المساند للرأسماليّة الإستعماريّة المتآلفة مع الأوليغارشيّة اليهوديّة في بريطانيا.

يمكن إيجاز آراء لوك التي كوّنت الليبرالية الكلاسيكية في المحاور الآتية:

1- دعا لوك إلى نوع من العقلانيّة التجريبيّة، (وهي خليط من العقل الإنسانويّ المبني على الابستمولوجيا التجريبيّة والحسّية). لقد أصبح هذا النوع من العقلانيّة من دعائم العلوم الحديثة، وكذلك من الأساسيات المعرفيّة للنظرية الليبرالية، أوعلى أقلّ تقدير من أسس الليبرالية الكلاسيكية طوال القرنَين الثامن عشر والتاسع عشر.

2- إنّ التفسير التجريبي - الحسّي المستمد من تلقّي الإنسان هوبمثابة (الصفحة البيضاء) التي تأتي مع ولادة الفرد، وقد أصبحت محطّ اهتمام النزعة الفرديّة المهيمنة في العلم الحديث، ولاقت ترحيباً لدى بعض الليبراليين الكلاسيكيين (الذين كانوا متناغمين مع الفلسفة التجريبية الحسيّة والتحليليّة في بريطانيا)، وقد أصبحت فيما بعد أساساً لدراسة الإنسان لدى أحدَ تيارات الليبرالية الكلاسيكية.

1- (1920 - 1993م)، Maurice William Cranston، فيلسوف بريطاني.

3- إنّ «جون لوك» هوأحد المفكّرين البارزين الذين بلوروا مفهوماً سياسيّاً وقانونيّاً استُعرض تحت عنوان «الوضع الطبيعي»، وعُرف ب-«نظريّة العقد الاجتماعي» التي لاقت رواجاً واسعاً لدى أحد التيارات الليبرالية المتنفذة، وعُدَّت من الفرضيات الأساسيّة في حقول العلوم السياسيّة والقانونيّة والاجتماعيّة. على الرغم من أنّ «لوك» لم يكن المنظّر الأوّل لنظرية العقد الاجتماعي، ولكنّه لعب دوراً أساسيّاً في ترويج هذه النظريّة ترويجاً للنظرية الليبرالية الكلاسيكية.

4- يرى «لوك» أنّ رضا النّاس هومصدر الشرعيّة السياسيّة، وقد أصبح ذلك من أسس الليبرالية الكلاسيكية، الإطار العام للديمقراطية الليبرالية. ولكنّ الملحَظ الأهم هو أنّ مقصود لوك من «النّاس» (مثل كانط وأغلب الليبراليين في القرنَين الثامن عشر والتاسع عشر) يقتصر على أصحاب رؤوس الأموال، وإنّ العمّال والفقراء والطبقات المعدمِة والذين لا يملكون أرضاً لا يُعَدّون ضمن«الناس» من وجهة نظر لوك. (1) إذن فإن جوهر ما يدّعيه لوك هوأنّ رضا أصحاب رؤوس الأموال هومصدر الشرعية السياسية، وإنّ من لا يملك رأس المال، على الرغم من أنّه تابع للمجتمع المدني، ولكنّه (حسب رأي لوك) لا يُعَدّ عضواً فيه، ولا تحقّ له المشاركة السياسية. يتحدّث لوك عن الطبقات الفقيرة والعمّال بلغةٍ غير لائقة وباستخفاف ويعبّر عنهم ب-(من يعيشون على قوت يومهم)، ويقصيهم ويحرمهم في نظريته من الانتماء للمجتمع المدني. كتب

1- آيزايا برلين، منتسكيو، ت: نادر انتخابي، نشر نكاره آفتاب، 1389 ه-.ش، ص 23 و 24 .

لوك عن الطبقـة الفقيرة والمستضـعفة (الـذين كانوا يمثلّون الغالبية العظمى من أفراد المجتمع البريطاني في أيّام لوك، ويمثلّون اليوم الغالبية العظمى في المجتمعات الرأسماليّة):

(إنّ العمّـال الأـجراء هم جزء من المجتمع. ولكن بمـا أنّهم لا يتمتعون بالملكيّـة الخاصـة فإنّهم مرهونون بأجرِهم اليومي. إذن فإنّ مقـدار أجرهم يحقق أدنى متطلبات العيش اليومي. إنّ مثل هؤلاء يعيشون على قوت يومهم، ويجب أنْ يكونوا كذلك) (1).

ما يتّضـح من آراء لوك هوأن المجتمع المـدني الـذي يتحـدّث عنه ويدعوإلى مشاركته ورضاه من أجل تأسـيس حكومة شـرعيّة (على حدّ تعبيره) هوفي الحقيقة مجتمع الرأسماليين وطبقة الملّاك والاقتصاديين.

5- يطرح «لوك» نظريّة «التسامح الديني» في إطاره الماسونيّ، ويقدّمه ركناً من أركان الديمقراطية الليبرالية. كما سـبقت الإشارة فإنّ مفهوم التسامـح هـذا، على خلاف ظاهره لا يشـمل أتباع كلّ الـديانات، ويسـتبطن اشارات صـريحة للـدعوة إلى العُنف وعدم التسامح مع أنصار البابويّـة وأعـداء الرأسـماليّة الليبراليـة التطهيريّـة ذات النزعة اليهودية في بريطانيا. يأتي هذا المفهوم تلبية لحاجة الرأسـمالية البريطانية التي تزعّمها التطهيريون، إذ أرادوا الائتلاف مع الأوليغارشيّة اليهوديّة المستقرّة في آمستردام وقتئذ، وذلك من أجل فسح المجال أمامهم لينشطوا في المجال السياسي والاجتماعي في بريطانيا. فضلاً عن ذلك فإنّ الأيديولوجيات الليبرالية والديمقراطية المختلفة بسبب

1- د. رافائل، آدام سميث، ت: عبدالله كوثري، طرح نو، 1375 ه-.ش، ص 17.

جذورها الماسونيّة، وكذلك بسبب صبغتها العلمانيّة والمناوئة للدين، واستبطانها النزعة الماديّة، فقد اعتمدت هذا الشعار أينما اقتضت الحاجة إليها. والعكس أيضاً! أي أينما اقتضت الحاجة تراجعت عن هذا المفهوم ومارست شتّى أساليب القمع والتنكيل ضدّ التيارات والحركات المطالبة بالعدالة، وكذلك الثورات الدينية.

6- يمثّل مفهوم «الفصل بين السلطات» إحدى الفرضيات الأساسيّة التي كان لوك من روّادها، وقد اتفق معه مونتيسكيو لاحقاً ليصبح هذا المفهوم أحد الأسس الرئيسة في الأيديولوجية الليبرالية والديمقراطية، ولتكون من أشهر الآراء السياسيّة في عصر الحداثة. عرض «لوك» فكرة الفصل بين السلطات في ظروفٍ سياسيّة خاصة في المجتمع السياسي البريطاني، وتحديداً بعد فترة «كروميل»، وكانت غايته من هذه النظريّة هي ايجاد تغيير في التشكيلة السياسية البريطانية وقتئذ، إذ كان الصراع محتدماً مع الإقطاعيين والأرستقراطيين من أتباع الكنيسة الكاثوليكية.

إنّ توازن القوى الذي سعت لتحقيقه السياسة البريطانية وقتئذ ولّد ظرفاً لا يسمح للرأسماليّة التطهيريّة أنْ تهيمن على كلّ جوانب السلطة. لذلك طرح لوك نظرية الفصل بين السلطات (تجزئة السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية) وأولى اهتمامه بالبرلمان (بصفته ممثلاً للسلطة التشريعية) ورسم نظاماً نيابيّاً ليحوز الجناح الرأسمالي الليبرالي التطهيري (الذي كان منظّراً له) على النسبة الأعلى من السلطة. لقد كانت السلطة القضائيّة في ذلك الحين بيد

الإقطاعيين، والبرلمان والسلطة التشريعية بيد الرأسماليين الليبراليين متمثلين بمجموعة من القوى السياسية والاجتماعية التي عرفت ب-«الطبقة الثالثة». (لقد عبّر الخطاب السياسي عن هؤلاء خلال القرنَين السابع عشر والثامن عشر ب-«الطبقة الثالثة»، على الرغم من عدم صحّة إطلاق هذا المفهوم عليهم، لأنّهم مجموعة من الفئات الاجتماعيّة). إن النموذج الذي أطلقه لوك مبنيٌّ على الفصل بين السلطات واعتماد النظام البرلماني، وهذا النموذج يهدف إلى توسيع رقعة السلطة السياسية للرأسمالية الليبرالية.

لقد عمل أقطاب الليبرالية الكلاسيكية لاحقاً على نشر النظام البرلماني ودعمه ليتصدوا لمنافسيهم السياسيين، وليصبح النظام البرلماني بشكلٍ متدرّجٍ من الأسس الأيديولوجية الأساسية للديمقراطية الليبرالية.

7- يُعرَف «لوك» بصفته واضعاً لنظريّة «حقوق الإنسان». إنّ هذه النظريّة تعتمد تعريفاً إنسانويّاً فردانيّاً للكائن البشري، وهوتعريف يعدّ حقيقة الإنسان ذاتاً أونواة نفعيّة قائمة بذاتها، وتروم تحقيق الملذّات، وإنّ ما يحفّز ويحرّك هذه الذات هي الأهداف النفعيّة والملذات الماديّة والدنيويّة، وتتنافس وتتنازع في هذه الحياة مع سائر الذوات التي تشترك معها في هذه الصفات؛ وإنّ علاقاته وتعاملاته مع الآخرين، وكذلك فإنّ صداقاته وعداءه وشراكاته كلّها مستمدّة من هذا المنطق النفعي والعلاقة المبنية على أنماط السوق الرأسماليّة. بناءً على هذا تحاول نظرية حقوق الإنسان التي تعدّ

الفرد كائناً نفسانيّاً قائماً بذاته، أنْ تحافظ على حقوق الناس الفرديّة بصفتهم ذرّات نفسانيّة، وأنْ تنظّم علاقاتهم في إطارٍ نفعيٍّ ممتزج بشراهةٍ مقيتة، ولتُصان كلّ ذرّة نفسانيّة (أي الفرد) من تجاوز سائر الأفراد ومن سطوة الدولة الحديثة ذات الماهيّة المطلقة.

إنّ نظرية حقوق الإنسان مبنيّةٌ على قراءة ذريّة للإنسان، وتعتمد منطقاً علمانيّاً نفعيّاً، ولها صبغة وماهيّة إنسانويّة، إذ عُرِضَت في مصافّ «نظام التكاليف الدينية» من أجل تنظيم واقع الانسان الحداثوي على الصعيدَين الاجتماعي والحقوقي، ولاسيما في المجتمعات الليبرالية والرأسمالية. إنّ نظرية حقوق الإنسان هي جزء لا يتجزّأ من البُنية الاجتماعية في الأنظمة السياسية الليبرالية والرأسمالية وتُعَد ركناً أساسيّاً في المدرسة الليبرالية والديمقراطية ذات الماهيّة النفسانيّة والعلمانيّة غير الدينية، وتُعتمد ذراعاً مقوّمة لدى السلطات الرأسماليّة الليبرالية والليبرالية الحديثة.

8- يدعو «لوك» في آرائه وكتاباته إلى جمع رأس المال، ولا يضع حدّاً لذلك، فهوالمناصر والمدافع عن المصالح الرأسمالية والإستعمار والاستثمار. يرى أغلب مؤرخي تاريخ الأفكار أنّ آراء «لوك» هي سعيٌ علميٌ جاد لتلبية المطالب الرأسمالية الليبرالية المتنامية في بريطانيا خلال القرن السابع عشر،(1) ولاسيما أنّه المنظّر الرئيس لليبرالية الكلاسيكية.

1- رابرت.ل.هايلبرونر، بزركان اقتصاد، (أقطاب الاقتصاد) ت: احمد شهسا، 1370 ه-.ش، ص 52.

ب- شارل مونتيسكيو و طرح جديد لليبراليةٍ دستوريةٍ (1) معتدلة (1689-1755)

ولد شارل لوي دي سيكوندا بارون (دولابرد) المعروف باسم مونتيسكيوفي 18 يناير من سنة (1689م) في «قصر لابرد» (2) على مقربة من مدينة «بوردو» (3) الفرنسيّة. كان والـده قاضـياً ثريّاً من الطبقة الأرسـتقراطية. ورث شارل لويي عن عمّه (رئاسة الديوان العالي للتمييز في البرلمان) في بوردوالتي كانت مؤسـسة قضائيـة محليّة قبل الثورة الفرنسـيّة. (4) إن الانتماء لعائلة أرسـتقرطية جعلت من مونتيسـكيوالذي أصـبح من المنظّرين الكبار لليبرالية الكلاسيكية أنْ يراعي مصالح الطبقة الأرستقراطيّة والإقطاعيين في تنظيراته السياسية، إذ حاول أنْ يطرح نظاماً ليبرالياً لا يقمع أولا يقصـي الإقطاعيين الأرستقراطيين، بل يجري وئاماً ومصالحة تاريخية بين النخبة البرجوازية والنخبة الإقطاعية، مع إعطاء الأولوية للبرجوازيين.

سافر مونتيسكيوكثيراً في أيّام شبابه، وتأثّر في بريطانيا بالحكومة

1- في التقليـد السياسـي الأمريكي فإن الهدف من الدسـتور عادة ما يُرى على أنه قيد يحد من سـلطة الحكومة والفكرة الأمريكية الخاصـة بالديمقراطية الليبرالية متأثرة بهذه الرؤية. فهم يركزون في فصل السلطات واستقلالية القضاء ونظام من القيود والموازنات بين فروع الحكومة. أما الليبرالية الدستورية الأوروبية فتركز أكثر على سيادة القانون رغم أنها تتضمن شكلاً محدداً من الدولة أوالنظام.

2- Chateau de la Brè de، قلعة اقطاعية في جيروند بفرنسا. ولد مونتيسكيوفي هذا القصر وعاش وكتب معظم أعماله فيه.

3- Bordeaux

4- يان مكنزي وآخرون، مقدمه اى بر ايدئولوژى هاى سياسى، (مقدمة حول الأيديولوجيا السياسية)، مصدر سابق، ص 63.

الليبرالية المنبثقة عمّا سـمّيَتْ ب-«الثورة المجيدة» (1) التي تُعَـد من نتاجات أفكار «جون لوك». وقـد كوّن هناك صداقات مع أشـخاص ينتمون لمحافل ماسونيّة.

بقي مونتيسكيوحتّى آخر أيّام حياته من أبرز الداعين إلى نظامٍ (ليبرالي - ماسوني) مبنيّ على مبدأ الفصل بين السلطات والعلمانيّة.

وقد نشر أفكاره في أشهر مؤلّفاته ك-«الرسائل الفارسيّة» (2) و «نظرات في أسباب عظمة الرومان وسقوطهم» و «روح القوانين» (3) ليكون أحد أبرز فلاسفة الليبرالية.

قد يكون مونيسـكيوأقل تأثيراً من «لوك» في نشر أسس الليبرالية الكلاسيكية، ولكن بنظرة واقعيّة يمكن أنْ نعدّه صاحب الدور الأبرز في بلورة الجوانب القانونيّة والسياسـية لنظرية الليبرالية الكلاسـيكية، ورائداً لنظرية الفصل بين السـلطات، ومن الفلاسفة المؤمنين بالنزعة العلمانيّة - الإنسانويّة في تاريخ البشر، ومن مروجي الماسونيّة ومفرداتها ك-«التسامح الديني» و «الربوبيّة-Deism».

أثّرت أفكار مونتيسكيوفي نشوء الليبرالية الجديدة خلال القرن العشرين، وأولاها الليبراليون الجدد اهتماماً خاصّاً من أمثال «أشعيا برلين».

1- Glorious Revolution، ثورة قـام بهـا البرلمانيون الإنجليز بالتحالف مع ويليام الثالث الحاكم الأعلى لجمهوريـة هولنـدا. وانتهت ب-«إعلان الحقوق» الذي أصدره البرلمان الإنجليزي عام 1689، وقد استعرض هذا الإعلان المظالم التي ارتكبها الملك جيمس الثاني في حقِّ الشعب، و اشترط على الملك الجديد عدم القيام بأي عمل يؤدي إلى الانتقاص من حقوق الشعب.

2- Persian Letters.

3- The Spirit of the Laws.

يمكن تلخيص المحاور الأساسيّة لآراء مونتيسكيوفي النقاط الآتية:

1- ينتمي مونتيسكيومن الناحية الابستمولوجيّة لأتباع «الفلسفة التجريبيّة الحديثة»، وإنّ أفكاره تصنَّف ضمن العقل التجريبي.

2- لقد وسّع مونتيسكيووشرح نظرية (الفصل بين السلطات) -التي بلورها «لوك» قبله - وعدّها ركناً أساسيّاً في الفكر السياسي والقانوني للنظرية الليبرالية الكلاسيكية. وقد أدّى دوراً كبيراً في إرساء القواعد القانونيّة والسياسية للنظام السياسي الليبرالي الذي دعا إليه.

3- أثّرت بعض آراء مونتيسكيوفي البنية التاريخية للفلسفة الإنسانويّة التمحورة حول «نظرية التقدّم». غير أنّ النزعة الليبرالية في آرائه، ولاسيما تقديمه تفسيراً ليبرالياً لفلسفة التاريخ كان لها الدور الأكبر في ذلك.

4- يؤكّد مونتيسكيو (كسائر فلاسفة الليبرالية) شعار (الحريّة الليبرالية)، ويعدّ الحريّة بنسختها الليبراليّة النواة الأولى والبُنية الأساسيّة لأفكاره السياسية والقانونيّة وآرائه التاريخية. ولكنّه عندما يتحدّث عن الحريّة الليبرالية ويوضّح تعارضها مع مفهوم الاستبداد لا يلتفت إلى أنّ الليبرالية نفسها تستبطن ماهيّة استبداديّة. يرى مونتيسكيو أنّ النظام السياسي عندما يستند للقوانين في الحكم سيُزال عنه الطابع الاستبدادي، غافلاً عن حقيقة واضحة للعيان تفيد بأنّ القانون نفسه قد يستبطن طابعاً استبداديّاً، وإنّ ما يفصل الاستبداد عن غيره لا يتمثّل بالاستناد إلى سلطة القانون الليبرالي. إنّ مونتيسكيوباعتماده القراءة الليبرالية لمفهوم الاستبداد يقدّم

حلوله في إطار سلطة القانون ليُعلن أنّ الأنظمة الرأسماليّة الأوروبيّة (الاستبداديّة) بمجرد اتباعها القانون الليبرالي فهي «حرّة»، كما يطبّق المبدأ الليبرالي الخاطئ نفسه على الشرق بنظرة دونيّة ويُدينه ويعتقد بأنّ الحياة الانسانيّة الشرقيّة لافتقادها المفهوم النفسانيّ – الذريّ والفرادنيّ والقانون الليبرالي هي حياة استبداديّة.

إنّ نظرة مونتيسكيولمفهوم الاستبداد لاقت رواجاً واسعاً في الفكر الغربي واعتمدها كُتّاب ومفكّرون ومبشّرون ليبراليون ونيولبراليون آخرون، وتعدّى هذا الانتشار ليشمل مفكّرين ليبراليين في داخل إيران أيضاً، فغالباً ما يعتمدون نظرة مونتيسكيوالليبرالية عند تناولهم مفاهيم من قبيل (الحريّة) و (الاستبداد) في دراسة التاريخ الإيراني. يمكن قراءة مثل هذه التحليلات والآراء في نصوص «محمّد علي (همايون) كاتوزيان» (1) الكاتب الإيراني الليبرالي المعاصر المقيم في بريطانيا، إذ تُنشر كتبه على مستوى واسع في داخل إيران، وللأسف يعتمده كثيرٌ من الأساتذة والمتصدين لوضع المناهج الدراسيّة في التخصصات الآكاديمية المَعنيّة كالعلوم السياسية والاقتصاد، واختيرت بعض كتبه كمصدرٍ أساسي في أقسام التاريخ في الكليّات الانسانيّة في الدراسات العليا. إنّ جوهر آراء كاتوزيان فيما يتعلّق بما يسمّيه ب–«الاستبداد الإيراني» بمثابة قراءة تاريخية لآراء مونتيسكيوفي ما يخصّ الاستبداد والقانون والحريّة وعلاقة كلّ ذلك بالحضارات الشرقيّة، وإنّ النواة الأساسيّة لآرائه مقتبسة

1– محمد علي همايون كاتوزيان (Homa Katouzian) عالم اقتصاد، وكاتب، وبروفسور، ومؤرخ، وناقد أدبي من إيران. ولد عام 1942م.

من نظرية مونتيسكيوالليبرالية حول الحريّة.

5- لعب مونتيسكيودوراً بارزاً في تدوين النظام القانوني والحقوقي العلماني - الليبرالي الفردانيّ، إذ أثرى بآرائه المحور القانوني والحقوقي والسياسي في نظرية الليبرالية الكلاسيكية.

6- إنّ مونتيسكيوكغيره من الليبراليين الكلاسيكيين ساهم في الترويج لقضية تهميش اليهود وظلاـمتهم في إطار (الدفاع عن اليهود و حقوقهم)، وذلك من أجل فسح المجال لنشاط الأقليّة اليهودية وهيمنتهم على مقدّرات الدول الغربية، (الأمر الذي تحقق بالثورة الفرنسيّة وغيرها من التحولات والأحداث السياسية والتاريخية).

7- ينتمي مونتيسكيولذلك الجناح الفكري من الليبراليين الذين لم يؤمنوا بنظرية «العقد الاجتماعي». إن الليبراليين الجُدد (نيوليبراليين)في القرن العشرين الذين رفضوا فكرة (العقد الاجتماعي) من أمثال «هايك» و «برلين» استندوا إلى آراء مونتيسكيوواعتمدوها كثيراً.

لا شكّ في أن مونتيسكيوهوأحد المنظرين الأساسيين في المدرسة الليبرالية الكلاسيكية، إذ أثّرت آراؤه في تكوين البُنية الثقافية والفكرية التي يعتمدها الغرب الحداثوي في تعامله مع الشرق، وكذلك في ترسيخ الأسس الفكرية المعتمدة في تدوين فلسفة التاريخ الإنسانوي، والعلوم الإنسانيّة العلمانيّة الحديثة والنظام الحقوقي الإنسانوي وغيرها من الحقول المعرفيّة الغربيّة.

ج- فولتير والتسامح الماسوني الليبرالي بنزعةٍ رأسمالية(1694 - 1778م)

ولـد «فرانسوا مـاري آروويه» المعروف ب-«فولتير» في فرنسا عام (1694). وكـان الابـن الخامس ل-«فرانسوا أرويه» و «ماري مارجريت دومارت»، وينتمي لأسـرة أرسـتقراطية. يُعَد فولتير تجسيداً للرؤى والآراء السائدة في عصر التنوير بفرنسا، فهورائد النزعة الماسونية ومن أبرز الدعاة إلى التسامح في المدرسة الليبرالية الكلاسيكية.

لم يكن فولتير مفكّراً عميقاً قطّ، ولكنْ بصـفته مفكّراً مستنيراً ليبرالياً منتمياً للماسونيّة، وباعتباره كاتباً هزليّاً متهتّكاً وبارعاً، لعب دوراً كبيراً في ترويج النزعة التنويرية والليبرالية ذات الميول الأرستقراطية.

نشر فولتير كتاب (الرسائل الفلسفيّة) في عام (1734)، مروجاً فيها أفكاراً تنويرية. وقد أمضى ثلاث سنوات من حياته في بريطانيا وتأثّر إلى حدٍّ بعيد بآراء «جون لوك».

يُعَـد فولتير كاتباً ماسونيّاً ليبرالياً اعتمد في آرائه وأفكاره الفلسـفية العقلَ التجريبي، والمنهجية المتبلورة على يد «فرانسـيس بيكون» و «جون لوك» و «اسـحاق نيوتن»، وبعـد عودته إلى فرنسـا أصـبح المنظّر والشارح الأوّل للرأسـمالية ذات النزعـة التجريبيـة التي تلقّاها في الجمعية الملكيّـة. لقـد أخـذ فولتر مفهوم التسامـح الـديني من المحافل الماسونية، وأخذ على عاتقه ترويج هذا المفهوم بصـفته أحد المنتمين لهذه المحافل.

ص: 116

يمكن تلخيص المحاور الرئيسة في آراء فولتير في النقاط الآتية:

1- كان فولتير من المؤمنين بالعقل التجريبي والابستمولوجيا التجريبية لدى «بيكون» و «لوك».

2- كان فولتير ربوبيّاً (Deism) ومن المؤمنين بالنظريـة اليهوديّـة الماسونيّة التي روجها «نيوتن» والتي تقول: إنّ الإله كصانع الساعة الذي يصنع الساعة ويتركها تعمل وحدها.

3- كان فولتير مولعاً بالرأسمالية الليبرالية في بريطانيا، وهوعضونشط في المحافل الماسونية، وكان يرى في الائتلاف الحاصل بين الرأسمالية الليبرالية العلمانيّة والطبقة الأرستقراطية في بريطانيا أنموذجاً مثالياً تمنّى تطبيقه في فرنسا.

4- كان فولتير ليبرالياً يدعو للاصلاحات التدريجية، ويعارض أي نوعٍ من الحركات الثوريّة وأيَّ حضورٍ لأيّ طبقة اجتماعيّة مُعدَمة في مجال المشاركة السياسية. إنّه كان يدعولنوعٍ من الأنظمة الليبرالية الأرستقراطية التي يتزعّمها مستبدٌّ مستنيرٌ مؤمنٌ بعقائد تنويريّة.

5- يؤمن فولتير بالحريّة الفرديّة وهي من أسس الليبرالية.

6- كان فولتير من أشدّ المعارضـين للكنيسة ورجال الدين، وكان متهتّكاً وماجناً في نصوصه، لاسيما في كتاباته التي تناولت الأنبياء ورجال الدين، فهومن أبرز الداعين إلى حكومة علمانيّة تفصل السلطة عن أيّ هويّةٍ أومعتقد ديني.

ص: 117

7- إن النواة الأولى في فكر فولتير هي القراءة الليبرالية الماسونيّة لمفهوم «التسامح والتساهل»، التي تُعد الأساس النظري الأهم في الليبرالية الكلاسيكية. إن جوهر مفهوم «التسامح والتساهل» وفق الرؤية الماسونيّة والليبرالية هي إقصاء (الاختلاف) والالتزام بالأُطر الدينية والمعايير الأخلاقية من أجل ردم الحدود الفاصلة بين الحق والباطل، والدين والكُفر، وإنّ الغاية من وراء ذلك هي ادخال المعتقدات والقيَم الشركيّة، والقضاء على الخلوص وثبات الإيمان في الأفراد والأمَم والمجتمعات.

عندما تُهيمن النزعة الفكريّة المستلهمة من مفهوم التسامح والتساهل (وفق الرؤية الماسونيّة) ستفقد مفاهيم أخرى معانيها الحقيقيّة من قبيل: الحق والباطل، والدين والكُفر، ومحاربة الشيطان، وتجنّب المحرّمات، ورعاية الحدود والقيود الدينية والأخلاقية وإجراء الأحكام الإلهيّة. وبهذا سيكون الظرف مواتياً لهيمنة الاستكبار الإنسانويّ الحداثوي الفردانيّ (أوالديمقراطية الليبرالية التي خرجت من رحم الماسونيّة)؛ وإنّ فولتير وغيره من الليبراليين الماسونيين كانوا يدعون للتسامح والتساهل من أجل تحقق هذا الهدف.

د- آدام سميث (1)، رائد النظرية الاقتصادية الليبرالية الرأسماليّة (1723-1790)

يُعَد «آدام سميث» مؤسس الاقتصاد الليبرالية الرأسمالية ورائده،

1- (م1790-1723)، Adam Smith، فيلسوف أخلاقي وعالم اقتصاد اسكتلندي. يُعدّ مؤسس علم الاقتصاد الكلاسيكي ومن رواد الاقتصاد السياسي.

وإنّ النظريّة الاقتصاديّة في المدرسة الليبرالية الكلاسيكية قد تبلورت على يده.

على الرغم من أنّ سميث عمل في مجالات فلسفيّة أخرى غير الاقتصاد، إذ كان مهتماً بفلسفة الأخلاق، وكتب رسالة عن ذلك وتصدّى لتدريس هذا الحقل، على الرغم من ذلك فإنّ المحور الأهم من تخصصه يتعلّق بالجانب الاقتصادي في «الليبرالية الكلاسيكية» ليكون رائد النظرية الاقتصادية في الليبرالية الكلاسيكية حتّى في الليبرالية الجديدة.

ولد «آدام سميث» في «كير كالدي» (1) في ولاية «فايف» (2) «الاسكتلندية»، ويبدو أنّه قد جرى تعميده (3) في الخامس من حزيران سنة (1723م). عندما ولد «آدام» لم يكن والده على قيد الحياة، وقد نشأ في عائلة متوسطة، وأمضى كلّ مراحل حياته وهو على علاقة طيّبة جدّاً مع والدته، ولم يتزوج «سميث» طوال حياته قطّ.

دَرَسَ سميث في جامعة آكسفورد، وكان يشكودوماً من ضحالة تعليم أساتذة تلك الجامعة. عمل لفترةً من الزمن بصفته محاضراً محترفاً في جامعة ادنبرة (4)، ودَرَّسَ المنطق بعدها في «جامعة كلاسكو» (5) ، وأصبح فيما بعد أستاذاً لفلسفة الأخلاق في الجامعة ذاتها.

1- Kirkcaldy.

2- Fife.

3- طقس مسيحي يمثل دخول الإنسان الحياة المسيحية.

4- University of Edinburgh.

5- University of Glasgow.

سافر سميث إلى جينيف وباريس والتقى بفولتير وأصبح مولعاً بهذا الكاتب الفرنسي الليبرالي الماسوني. يستمدّ سميث أصول آرائه الفلسفية إلى حدٍّ بعيد من آراء صديقه المقرَّب له «ديفيد هيوم» (الفيلسوف التجريبي الشكّاك الانجليزي ذوالميول الوضعيّة – Positivism)، ولاسيما وأنّه كان يعدّ هيوم أكبر فيلسوف في عصره.

إنّ السبب الرئيس لشهرة «آدام سميث» يأتي من آرائه الاقتصادية التي تُعد الأساس النظري والفلسفي للرأسمالية، وكذلك من كتابه «ثروة الأمم» (1) الذي نشره عام (1776م). إنّ كتاب (ثروة الأمم) هورسالة مفصّلة في توضيح كيفية نشوء النظام الرأسمالي العلماني الإنسانوي، و للدفاع عن أحقيته. يعبّر سميث عن النظام الرأسمالي بنظام «الحرية الكاملة»، ويستند لفرضيةٍ تحت عنوان (اليد الخفيّة) (2) ليبيّن ويروّج و يدافع عن هذا النظام. بغضّ البصر عن نوايا آدام سميث وحافزه، فإنّه في كتاب (ثروة الأمم) يروّج لنموذج من الحياة المبنية على النفعية غير المشروعة وتجميع رأس المال. لقد طرح سميث ادعاءً خاطئاً قال من خلاله: إن الفرد في المجتمع الحداثوي [انتبهوا «للفرد» بمفهومه الليبرالي] عندما يتصرّف بمقتضى غاياته النفعيّة والشخصيّة، وعندما يستند إلى نوعٍ من النفعيّة والأنانيّة، عندها تأتي خفيّة وتنشط في هذه الدائرة الرأسماليّة وتحقق توازناً وتناسقاً بين الأفراد النفعيين، وإنّ هذا

1- The Wealth of Nations.

2- Invisible hand، اليد الخفية، هي استعارة ابتكرها آدم سميث، وقام بشرح مبدأ اليد الخفية في كتابه ثروة الأمم وكتب أخرى، حيث يقول: إنّ الفرد الذي يقوم بالاهتمام بمصلحته الشخصية يساهم أيضاً في ارتقاء المصلحة الخيرة لمجتمعه ككل من خلال مبدا «اليد الخفية». حيث يشرح أنّ العائد العام للمجتمع هومجموع عوائد الإفراد. فعندما يزيد العائد الشخصي لفرد ما، فإنه يساهم في زيادة العائد الاجمالي للمجتمع.

التنسيق (الذي شبهه سميث بيدٍ خفيّة) يؤدّي إلى تحقيق المصالح والغايات الماديّة لدى كلّ الأفراد.

يمكن القول إنّ مفهوم (اليد الخفيّة) هي من الركائز الأساسية الداعمة للنزعة الفردانيّة النفعية الرامية لتحقيق المصالح الرأسماليّة الإنسانويّة. إنّ آراء سميث أصبحت من ضمن الأسس الاقتصاديّة الهامّة في المدرسة الليبرالية ليكون المنظّر الاقتصادي الأبرز الذي لعب دوراً كبيراً في بلورة الليبرالية الكلاسيكية.

بعد نشوء الليبرالية الجديدة (النيوليبرالية) في القرن العشرين عادت نظرية اليد الخفيّة لميدان البحث والتنظير، إذ تناولها الاقتصاديون الداعمون للأنظمة الرأسماليّة، وأعيدت بنيتها على يد «فردريش فون هايك» في إطار ما سمّاه ب-«النظام التلقائي» (1).

خصائص الليبرالية الكلاسيكية

«الليبرالية الكلاسيكية» هي الأيديولوجيا الأولى في الغرب الحداثوي، والحلقة الأولى من السلسلة الفكريّة المتمثلة بالديمقراطية الليبرالية. يمكن تبيين خصائص الليبرالية الكلاسيكية وفق النقاط الآتية:

1- إنّ النواة الأساسيّة لليبرالية الكلاسيكية هي «الحريّة الفرديّة» (المفهوم الليبرالي للحريّة). إنّ الحريّة الليبرالية هي حريّة نفسانيّة، وجوهرها مستمّد من (المنفعة، والملذّة المُعَلمَنة الإنسانويّة)، وهي

1- Spontaneous order.

لا محدودة وغير مشروعة وغير مقيّدة بشروط ومتنامية ومخرّبة (مخرّبة للطبيعة والبيئة، ومقوّضة للنفس والروح البشريّة). إنّ ماهيّة الحرية الليبرالية غير سليمة وهي ضد تنمية الإنسان وكماله، وتودي به إلى الأسر والفساد.

تتمحور الليبرالية الكلاسيكية حول الحريّة الليبرالية، وإنّ غاية الحرية في إطارها الليبرالي هي تحقيق المصالح والمطامع غير المقيّدة وغير المشروعة، وفي مرحلة ثانية تهدف إلى تحقيق ملذّات شهوانيّة واباحيّة.

لطالما كانت «الحريّة» الليبرالية تدعو إلى الاستثمار وتحقيق المنافع الفرديّة، وقد كان ذلك منذ نشوء الرأسمالية الإنسانويّة وتطورها من القرن الرابع عشر حتّى القرن الثامن عشر، وكذلك عند هيمنتها بصفتها القوّة الاستكبارية والاستعماريّة القاهرة، حتّى بعد تعرّضها لمختلف الأزمات ووصول الغرب الحداثوي إلى حافّة الهاوية.

استمراراً لهذا الحضور راحت الحريّة الليبرالية تروّج علناً للاباحية وللتحرر من كلّ القيود الأخلاقيّة، إذ كان ذلك في بدايات القرن العشرين، وفي بدايات الستينيات في الولايات المتحدة، حيث حدث ما يسمّى ب–«الثورة الجنسية» (1) وانتشرت نزعة إباحيّة وجنسيّة غير مسبوقة تشجع على حريّة العلاقات الجنسية وتعرّي النساء ليصبح الفرد الحداثوي بعد ذلك أسيراً في هذه النزعة الجنسانيّة،

---

1 – Sexual Revolution، الثورة الجنسية مصطلح للتعبير عن التغيير الجذري في العلاقات الجنسية في العالم الغربي بين نهاية الستينيات وبداية السبعينيات.

وليتبلور الوجه الآخر لمفهوم الحريّة الليبرالية.

إنّ الحريّة الليبرالية على خلاف ما يقول دعاتُها لا تتوخّى سوى النفعيّة المعلمنة والإنسانويّة، وإنّ غالب ما يقولونه عن حريّة التعبير وحريّة الصحافة ليس سوى ظواهر وقشور لإخفاء تلك الرذائل الأخلاقيّة والنفعيّة المقيتة التي تدعوإليها هذه الحريّة.

2- النفسانيّة ذات النزعة الذريّة (Atomism)، التي تتبلور في إطار الفردانيّة (Individualism)، أوما يُعَبَّر عنه بأصالة الفرد. إنّ الليبرالية الكلاسيكية تعتمد الفردانيّة (أصالة النفس الأمّارة الفرديّة)، وإنّ الإنسان وفق هذه النظريّة يُعَرَّف بأنّه ذرّة نفسانيّة قائمة بذاتها. بعبارة أخرى فإنّ الإنسان في الليبرالية الكلاسيكية هوتجسيد للنفس الأمّارة الفرديّة، وإنّ يُعَبَّر عنه ب-(الجمع) في الأيديولوجيات الشمولية (Collective) الغربية ك-(الاشتراكية القوميّة، أوالاشتراكيات المتطرفة) ليس إلّا جمعاً للأنفس الأمّارة. مع ذلك لا تعترف الليبرالية الكلاسيكية بهذه الرؤية وتؤكّد الأصالة الفرديّة للنفس الأمّارة، وتناهض أيَّ نوعٍ من الجمعيّة أوالشموليّة.

إنّ غالب الآراء والفرضيات التي يطرحها الليبراليون في إطار (الحقوق والحريّات الفرديّة)، و(حقوق الإنسان) مبنيّة على قراءة فردانيّة وعلى تأصيل النفس الأمّارة. ومن هنا تكون الليبرالية الكلاسيكية في سجال دائم مع الأيديولوجيات الشموليّة الجمعيّة.

3- إنّ الليبرالية الكلاسيكية تتبنّى نظرية «الحقوق الطبيعية» ونظرية «العقد الاجتماعي»، فهاتان النظريتان من الأسس الأيديولوجية في

المدرسة الليبرالية. على الرغم من ذلك هنالك بعض الليبراليين يقدّمون قراءة متفاوتة لنظرية الحقوق الطبيعية، أويرفضون نظرية العقد الاجتماعي.

لقد تبلورت نظرية الحقوق الطبيعية على يد «جون لوك» وبعض منظّري الليبرالية الكلاسيكية في سياق سجالهم الفكري مع الاقطاعيّة والكنيسة الكاثوليكية. يُعَد «جون لوك» المنظّر الأوّل والأهم لنظرية «الحق الطبيعي» التي بلورها لغايات ليبرالية. إنّ الإنسان – وفق نظرية الحقوق الطبيعية – يملك مجموعة من الحقوق منذ ولادته، وإنّ الليبرالية الكلاسيكية بتبنّيها هذا الرأي (الذي لا تقدّم له أيّ دليل وشاهد واستدلال) تدّعي أنّ نظام حقوق الإنسان هونظام ذاتي وطبيعي. إنّ خلاصة ما تدعيه هذه النظريّة هي إن للإنسان حقوقاً منذ لحظة ولادته، وهويبحث عن منافعه وملذّاته العلمانيّة الإنسانويّة، وكلّ ذلك هوأمر طبيعي. إنّ نظرية الحقوق الطبيعية المستمدّة من قراءة ليبرالية للكائن البشري خاضت سجالاً ثقافيّاً مع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وسلطة الإقطاعيّة، فهي تدافع عن المصالح الرأسماليّة وتهدف إلى شرعنة النزعة النفعيّة الإنسانويّة للطبقة الرأسماليّة.

إذن فإنّ «نظرية الحقوق الطبيعية» كانت وسيلة عقليّة اعتمدها الليبراليون الأوائل لمقارعة القمع السياسي الذي مارسته الاقطاعيّة... إنّ مثل هذه القراءة تفصح عن عقيدة تفيد بأنّ الليبرالية الكلاسيكية كان مبنيّة على شكلٍ من أشكال البرجوازيّة أوالفردانيّة، متوخيّةً تحقيق الأهداف الشخصيّة، ولاسيما كنز الأموال [رأس

المـال] حتّى إن كـان ثمن ذلـك التزامات اجتماعيّـة أخرى. يقول «جون لوك» في نص (رسالتان في الحُكم) (1) إنّ الهـدف النهائي الذي يجعل الأفراد يشتركون في المصالح ويرضـخون للحكومة هو «حفظ أموالهم». إذن سـتكون الليبرالية هي المصدر المشرّع لتلك الحكومة التي تسـمح للأفراد بأن يتعاونوا فيما بينهم (بغضّ النظر عن السـعي لتحقيق الصالح العام) من أجل تكاثر الثروة وخدمة لأهداف شخصـيّة أخرى (2).

إنّ نظريـة «الحقوق الطبيعيـة» تعتمـد قراءة ليبراليـة للإنسان وتسـعى لشـرعنة نزعة نفعيّة مكتنفة بالظلم والتلذذ المادّي غير المشـروع وغير الأخلاقي، وتقدّمه أمراً طبيعيّاً وتعدّه من الحقوق الطبيعيّة لكلّ فرد، وأمراً بديهيّاً لا يحتاج للإثبات!

إنّ مـا يعـدّه اليبراليون «حقوقاً للإنسان» مسـتمدّ من هـذا الوهـم المعنوَن ب-«الحقوق الطبيعيّـة»؛ فحقوق الإنسان الأنموذج الأكثر تطوراً لفكرة «الحقوق الطبيعيـة»، وإنّ الحقوقيين وفقهاء القانون والمنظّرين والفلاسـفة وكلّ من ينتصـر للديمقراطيـة الليبراليـة لم يقدّموا أيّ دليل يؤيّـد صـحّة هـذا الرأي، مقتنعين بأنّه من القضايا البديهيـة والطبيعية! في الحقيقة إنّ المَزاعم الواهية كالحقوق الطبيعية وحقوق الإنسان هي لغرض تبرير النزعة النفعية الاستثماريّة والملذات غير الأخلاقيّة، خدمةً للطبقة الرأسماليّة العلمانيّة، لأنّ العلاقات البشريّة

1- Two Treatises of Government.

2- نيرا چانـدواک, جامعه مدنى ودولت, (المجتمع المدني والدولة) فريدون فاطمى, وحيد بزرگى, نشـر مركز, 1377 ه-.ش, صص 89، 90،91،93،94، 95،98،99،105.

في المجتمعات الحداثويّة، تهيمن عليها هذه الطبقة وتعمل على تحقيق المصالح المُعَلمَنة والحداثويّة، وليست فكرة الحقوق الطبيعية وحقوق الإنسان سوى تبرير وترويج ودعم لمصالحهم ومفاسدهم.

يشير «جون كيلي» (1) في كتابٍ حول تاريخ النظرية الحقوقيّة في العالم الغربي (2) إلى ظروف نشأة نظرية الحقوق الطبيعية في آراء «غروتيوس» (3)، متحدّثاً عن الماهيّة العلمانيّة في هذه النظريّة، ومدى الإقبال الواسع الذي لاقته هذه النظريّة في القرن الثامن عشر. وعلى حدّ تعبير «كيلي» فإنّ (الله) في نظريّة الحقوق الطبيعية ليس سوى فكرة مترفة في مبحث عقلاني! (والعياذ بالله). وبهذا أصبحت نظرية الحقوق الطبيعية بمثابة الغطاء الحقوقي والقانوني للدفاع عن أغراض الطبقة الرأسماليّة ومصالحها.

ثمّة مفهوم آخر في الآراء السياسية التي تطرحها الليبرالية الكلاسيكية عبّروا عنه ب-«العقد الاجتماعي». إنّ «جون لوك» بصفته المنظّر الليبرالي الرئيس في القرن السابع عشر يدّعي أنّ الإنسان قبل نشوء «المجتمع المدني» كان يعيش في «الوضع الطبيعي»، وأنّ في الوضع الطبيعي على الرغم من وجود شيء من الضمان لحقوق الأفراد إلّا أنّ المجتمع كان يعاني مشاكل في ضمان الحقوق الطبيعية بسبب غياب الدولة والمجتمع المدني. لهذا السبب عمل

1- (م1931_1991)، John Maurice Kelly ، أكاديمي وسياسي ايرلندي.

2- A Short History of Western Legal Theory (Oxford University Press, 1992) ISBN 05-876244-19--

3- (م1583-1645)، Hugo Grotius ، قاضي هولندي، وضع مع فرانشيسكودي فيتوريا وألبريكوغنتيلي أسس القانون الدولي اعتماداً على الحق الطبيعي.

الأفراد على حماية أموالهم ومصالحهم وحريّاتهم المستلهمة من الحقوق الطبيعية وذلك من خلال إبرامهم «العقد الاجتماعي» وتأسيسهم المجتمع المدني.

يبدو أن فكرة «العقد الاجتماعي» لدى لوك هي مجرد فَرضيّة، ويُستبعَد أن يكون «لوك» مؤمناً بحدوث فكرة العقد الاجتماعي في حقبة تاريخيةٍ ما على أرض الواقع. حسب ادعاء «لوك» فإنّ إبرام هذا (العقد الاجتماعي) ينتج مجتمعاً مدنيّاً، وإنّ روح هذا المجتمع المدني وقوامه ليس إلّا رعاية مصالح الأفراد ومنافعهم، وبالطبع المقصود من الأفراد هنا هو: أصحاب رؤوس الأموال، لأنّ لوك يرى كسائر منظّري الليبرالية أنّ صاحب رأس المال وحده هو من يمثّل المجتمع المدني ويكون عضواً فيه، ووفق الرؤية الليبرالية الديمقراطية لم يكن المجتمع المدني إلّا حيّزاً لتنافس أصحاب رؤوس الأموال والنفوس الأمّارة الفردانيّة (الذريّة) المتطبّعة بصفات الذئب!

4- تُعد (نظرية التقدّم -(Idea of Progress) من الفرضيات الرئيسة في الليبرالية الكلاسيكية. إنّ من بين النظريات الإنسانويّة الحداثوية يمكن أنْ نقول إنّ نظرية الليبرالية الكلاسيكية، والديمقراطية الليبرالية ذات التوجه الاشتراكي، والنيوليبرالية أو الليبرالية الجديدة، والماركسيّة، وبعض التوجهات في النظريّة النسويّة (1) هي من أكثر النظريات الحداثويّة التي تؤمن بنظريّة التقدّم التي ليست إلّا مفهوماً واهياً وهميّاً بلورها التحريف الإنسانوي للتاريخ.

1- Feminism.

5- تستنكر الليبرالية الكلاسيكية أي تدخّل للدولة والسلطة في المجال الاقتصادي، ولاسيما إذا كان هذا التدخل من أجل حماية الطبقات المعدمة والفقيرة، وللحد من هيمنة الطبقة الرأسماليّة. يدّعي الليبراليون الكلاسيكيون في شعاراتهم أنّ رفضهم لتدخل الدولة في الاقتصاد هو من أجل الحفاظ على الحريّة وضماناً ل-(التدفق الدائري للاقتصاد والدخل) (1) . ولكنّهم على الصعيد العملي والواقعي عندما يكون تدخل الدولة في ظروف خاصّة ومن أجل حماية المنافع ورؤوس الأموال يرحبون بتدخلها. ولكنّهم ما إن يشعرون بأنّ تدخل الدولة هومن أجل ضمان حقوق الفقراء والحد من النزعة النفعية حتى ينطلقوا من شعار «الاقتصاد الحر» والدفاع عن مبدأ «التدفق الدائري للاقتصاد» ونظرية «اليد الخفيّة/ Invisiblehand» ويطالبوا بالدولة الصغيرة والنظام الرأسمالي الحر.

خلاصة القول إن الليبرالية الكلاسيكية تدعوإلى اقتصادٍ رأسماليّ حُر تكون النزعة النفعيّة البحتة فيه هي المهيمنة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وألّا تتصرف الدولة تصرّفاً يؤدي إلى انخفاض حجم رأس المال وأرباح الطبقة الرأسمالية، حتّى إن كان ذلك التدخل يصب في مصلحة الفقراء والطبقة المعدمة.

إنّ الدولة التي تنشدها الليبرالية الكلاسيكية هي دولة صغيرة تحرص على أمن الطبقة الرأسماليّة وتحقيق مصالحها. على الرغم

---

1 - circular flow of income التدفق الدائري للدخل أوالتدفق الدائري هونموذج إقتصادي تمثل فيه البورصات الكبرى كتدفقات للأموال والسلع والخدمات وما الى ذلك من وحدات إقتصادية.

من ذلك فقد كانت الدول الليبرالية الرأسمالية في الواقع دولاً كبيرة ذات بيروقراطية منظّمة ومعقّدة وأجهزة بوليسيّة وقمعيّة واسعة تعمل على حماية الغايات الاستعمارية والرأسماليّة.

6- إنّ التسامح والتساهل الليبرالي الماسوني الذي رُوّجَ له منذ القرن السابع عشر حتّى القرن التاسع عشر مثّل أحد شعارات الليبرالية لتختفي خلفه الرأسماليّة المرتبطة بالتجمعات اليهوديّة - الماسونيّة، ولتتاح لليهود إمكانية العمل والنشاط الثقافي والاقتصادي والإعلامي. فضلاً عن ذلك فإنّ مثل هذا المناخ يسمح للملحدين والعلمانيين أنْ يمارسوا نشاطهم المناهض للدين بحريّة تامّة. هذا وفي الوقت نفسه كلّما واجه النظام الليبرالي خطراً يهدد استمراره أهمل شعار (التسامح والتساهل) ومارس القمع ضدّ مخالفيه. ففي واقع الحال إنّ هذا الشعار هوغطاء إعلامي خادع لتستّر على الطابع القمعي والعنيف لليبرالية الكلاسيكية (وسائر النظريات في حقل الليبرالية)، وهوإطار نظري رئيس يخدم الأغراض الماسونية المناهضة للدين.

7- إنّ الليبرالية الكلاسيكية تؤكّد نظرية الفصل بين السلطات في بنية النظام السياسي - الاجتماعي. بغض البصر عن مواءمة هذه النظريّة مع مصالح الطبقة (الارستقرطيّة الرأسمالية) في القرنَين السابع عشر والثامن عشر عند سجالها السياسي الطبقة (الأرستقراطية الإقطاعيّة) فإنّها (أي نظرية الفصل بين السلطات) تؤدّي دوراً كبيراً في إخفاء الوجه المستبدّ المهمين للسلطة السياسية والاجتماعيّة في

المجتمعات الليبرالية، وكذلك في خداع الأفراد الخاضعين لهذه الأنظمة التي تروّج أوهاماً من قبيل الفصل بين السلطات.

8- تدافع الليبرالية الكلاسيكية عن المُلكية الفرديّة في إطارٍ علمانيّ رأسمالي، وهي تقترب من الليبرالية الجديدة من هذه الناحية.

تؤمن الليبرالية الكلاسيكية بوجود أحكام أخلاقيّة ثابتة ومطلقة في إطار الأخلاقيات الليبرالية الحداثوية التي تنتصر للفردانيّة والرأسماليّة الإنسانويّة. غير أنّ هناك نظريات أخلاقية متعددة في الإطار النظري الخاص بالليبرالية الكلاسيكية، (كنظرية الأخلاق الذاتانيّة (1) لدى «ديفيد هيوم»، ونظرية الأخلاق النفعيّة (2) التي دعا إليها «هلفتيوس» (3) و «بنثام»، ونظرية الأخلاق الذرائعية لدى «كانت» و...(تبدومختلفة في بعض الجوانب، ولكنّها تعمل وفق المصالح الليبرالية.

على صعيد المقارنة والتقييم في حقل النظريات الأخلاقيّة في اطار الليبرالية يمكن أنْ نقول إنّ الأخلاق النفعيّة (Utilitarianism) لها مكانة وأهميّة مميزة.

إنّ الليبرالية الكلاسيكية عند مقارنتها بين القيم الأخلاقيّة والواقعيّات العينيّة تؤمن بالفصل بين «حقيقة الشيء» و «ما يجب أنْ

1- ethics subjectivism.

2- Utilitarianism.

3- (1715-1771م)، Claude Adrien Helvé tius، فيلسوف وموسوعي فرنسي.

يكون» (1)، وترى أنّ الأحكام الأخلاقيّة هي نتاج «الإنشاء»، وهي من صنف «القضايا القياسيّة المستقلة عن القضايا الخبريّة».

9- إنّ الليبرالية الكلاسيكية بدورها النظرية الرأسماليّة الحداثويّة منذ القرن السادس عشر حتّى القرن التاسع عشر عملت على دعم «التجارة الحُرّة» من أجل دعم الأهداف النفعيّة وكنز رأس المال. إن الليبرالية الكلاسيكية وأخواتها لا تكترث بما إذا كانت هذه التجارة الحُرّة نافعة لأفراد المجتمع وللحقيقة الإنسانيّة، حتّى إذا كانت ضارّة وتسبب الشقاء. إنّ منطق «التجارة الحُرّة» في الليبرالية الكلاسيكية لا يمثّل سوى دعوة تتبع النفعيّة غير المشروعة وغير المحدودة في إطار حداثوي.

10- تركّز الليبرالية الكلاسيكية في القراءة النفسانيّة لمفهوم الحريّة (2) . على الرغم من أنّ بعض الشعارات والمزاعم التي تتبنها الليبرالية، إلّا أنّها لا تكترث بالعدالة الاقتصادية والاجتماعيّة، وإن حديثها عن العدالة لا يتجاوز الاطار العام الذي ترسمه الحريّة بمفهومها الليبرالي التي تدحض كلّ صور العدالة.

11- إنّ النموذج السياسي الذي تقدّمه الليبرالية الكلاسيكية يسعى لبلورة نوع من الديمقراطية بنزعة إنسانويّة ورأسماليّة التي

1- مشكلة حقيقة الشيء وما يجب أن يكون عليه الشيء، (The Is-ought problem).

2- إن الفقه وعلم الكلام يتكلمان عن علاقة الفرد بخالقه وأخيه الإنسان، أي إنها حرية ميتافيزيقية. وهذا يختلف عن مفهوم الحرية في القرن التاسع عشر , الذي يدور حول الفرد كمشارك في انتاجية المجتمع. (م).

تعتمد النظام البرلماني. إنّ الإعلام الليبرالي يروّج للحكومة البرلمانية ويقدّم النظام النيابي بصفته النموذج المثالي للسياسة والحكم. ولكن عند قراءة الأحداث التاريخية على مرّ العصور نرى أنّ منظّري الليبرالية عند تحقيق المصالح الاستعماريّة والرأسمالية نراهم ينتصرون لأنظمة سياسية غير برلمانيّة، لم تلتزم بالضوابط الديمقراطية الليبرالية، ونجد هذه الظاهرة لدى الليبراليين الجدد أيضاً.

12- يمثّل مفهوم «المجتمع المدني» أحد المفاهيم الأساسيّة والمهمة لدى الليبرالية الكلاسيكية. إن مفهوم «المجتمع المدني» ومفهوم «حقوق الإنسان» يؤلّفان البنية الخفيّة والمعقّدة للطبقية الاجتماعية في المجتمعات الليبرالية – الرأسمالية، وهي بُنية قمعيّة تفرض الرقابة الخفية على الرأي العام وتهيمن على ضمائر الأفراد وتديرها، وتدمّر الفردانيّة الحقيقية لدى الأفراد عند دفاعها عن الفرد والحقوق والحريّات الفرديّة، وتجذّر التبعيّة والانسلاخ عن الذوات، وتسوق الأفراد إلى الدنوّ والبؤس والشقاء.

القمع والتسافل، تنافس متوحش: باطن المجتمع المدني الليبرالي

لقد تطوّر مفهوم المجتمع المدني في تاريخ الفكر الغربي على مدى تاريخ الأفكار. إنّ مفهوم المجتمع المدني في الفلسفة السياسية التي قدّمها «توماس هوبز» تقابل مفهوم الوضع الطبيعي، ومن أجل تبرير الحكم المطلق الذي عبّر عنه في تنظيره. ولكن «جون لوك»

بصفته المنظّر الرئيس لليبرالية الكلاسيكية اعتمد مفهوم «المجتمع المدني» أنموذجاً مثاليّاً لمجتمعٍ ليبرالي – رأسمالي، إذ تحكم فيه الموازين الليبرالية والرأسمالية.

التفت علماء الاقتصاد خلال القرن الثامن عشر لمفهوم «المجتمع المدني» وأكّدوه في آرائهم. إنّ ما يسمّيه الفلاسفة والاقتصاديون والمفكّرون الليبراليون ب–«المجتمع المدني» هوبيان للباطن المتوحش والمستعمر للغرب الحداثوي. إن المجتمع المدني يمثّل الوجه الحقيقي للمجتمع الليبرالي الحداثوي، فهومجتمع فردانيّ نفعيّ رأسماليّ يتصف بصفات الذئب، ويكون فيه الإنسان بصفته «فرداً» أو «مواطناً» يتنافس ويتخاصم مع الآخرين من أجل تحقيق مكاسبه ومصالحه وآماله النفسانيّة. وفي خضمّ هذا المعترك عمل الفكر الليبرالي على تنظيم هذا السجال والصراع والتنافس المتوحش القائم بين الأفراد (الذين هم ذرّات نفسانيّة وفق المفهوم الليبرالي الإنسانوي، وإن التعبير السياسي يسميهم ب–«المواطنين»)، وقد سنّ مجموعة من القوانين والأحكام لتنظيم هذا الصراع وأطلق عليها تسمية «حقوق الإنسان»، ليكون هذا الصراع النفعي وهذا التخاصم مقنناً، وكي لا يؤدّي إلى الاصطدام والعنف بين التجّار والرابحين. على الرغم من أنّ تقنين هذا التنافس والتخاصم يحول دون انهيار المجتمع المدني، ولكنّه يعجز عن الحفاظ على المجتمع المدني وإبعاده عن الانهيار المحتوم، وهوالواقع الذي شعر به هيغل

وماركس وكثير من الفلاسفة والمفكّرين الإنسانويين (1).

تقول الباحثة السياسية (نيرا شاندوك) (2) حول مفهوم المجتمع المدني في الفلسفة السياسية الحديثة:

إنّ الاقتصاد السياسي الكلاسيكي عندما يقدّم قراءة حديثة للمجتمع لم يقدّم علماً جديداً حول المجتمع فحسب، بل افترض أنّ هذا العلم كوّن قوانين شاملة عالميّة. لقد جرى تقسيم العقل والتطور المادي والتطور الأخلاقي في درجات متباينة، وقد جمعت كلّ هذه المعايير في مفهوم «المجتمع المدني». بعبارةٍ أخرى، لقد أصبح مفهوم المجتمع المدني معياراً لقياس مدى تطور المجتمعات، وإن بعض المفكرين من أمثال «آدام فرغوسن» استنتجوا أنّ المجتمعات المتطورة هي مجتمعات مدنية، ولكن المجتمعات البدائية ليست كذلك، وهنا نشهد دوراً تاريخيّا لافتاً. لم يعد المجتمع المدني النقطة المقابلة للوضع الطبيعي (كما بلورها أصحاب نظرية العقد الاجتماعي)، بل أصبح النقطة المقابلة للاستبداد الشرقي والغربي والإقطاعيّة... إن علماء الاقتصاد يعتقدون بأن المجتمع المدني يمثّل المرحلة الأخيرة والأكثر تطوّراً في التاريخ، ويقدّم مستوى عالياً من النمو و التنمية... إنّ كلّاً من «فرغوسن» و «استورت» و «آدام سميث» لعبوا دوراً مهمّاً في صياغة مصطلحات علم الاقتصاد والاجتماع. نجد هنا فجوة بين النظرة الأرسطيّة للسياسة: إنّ وضع

1- چاندوک نیرا، جامعه مدنی ودولت، (المجتمع المدني والدولة)، مصدر سابق، 121 - 118.

2- (م1947، Neera Chandhoke- حتى الآن)، أستاذة العلوم السياسية في جامعة دلهي.

الإنسان الطبيعي يتألّف في المجتمع الاقتصادي لا في المجتمع السياسي. يصبح المجتمع المدني هنا مكاناً لتحقيق الأهواء الشخصيّة واحتياجات حياة الفرد اليوميّة، وعلى هذا الأساس يكون الاقتصاد في الحياة الفردية والاجتماعية في الدرجة الأولى من الأهميّة والسياسة في المرتبة الثانية.

... إنّ المجتمع المدني هوالنطاق الخاص لبلورة الأنانيّة الجماعيّة، حيث أعدّ كل فردٍ وسيلة لتحقيق أهدافي. وإن أصدق مثال على ذلك يتمثل بالحياة الاقتصادية، التي أمارس فيها عملية البيع والشراء ليس من أجل تلبية حوائج الناس، بل من أجل استغلال احتياج الناس لتلبية احتياجاتي الشخصية. إنّ أهدافي تتحقق من خلال احتياجات الآخرين. فكلّما كان الآخرون أشدّ احتياجاً للذي أستطيع تحقيقه سأتمتع بمكانة أفضل... ففي حقيقة الأمر كان رأي آدام سميث في نشوء المجتمع المدني هوبسبب النزعة النفعيّة لدى الأفراد، وليس بإرادة الحكّام وتخطيطهم... إن المجتمع المدني الناضج من وجهة نظر الاقتصاد السياسي يتكوّن من ثلاثة عناصر في أقل تقدير: الفردانيّة، والمُلكيّة والسوق. وإنّ هذه العناصر الثلاثة كانت بمثابة القيم المطلقة المسلّمة بها في النظرية الليبرالية. لقد أصبحت الغاية الرئيسة من استقلال الفرد في التعاملات الاقتصاديّة تتمثل بحقّ الحريّة والمساواة في المجال السياسي... وبهذا صار الاقتصاديون السياسيون يضعون برنامج عمل الليبراليين. على أن مفهوم المجتمع المدني في وجهة نظر الفريقَين يتمتع بالموقع المحوري والمركزي بصفته النطاق

ص: 135

الـذي تتبلور فيه تاريـخ الحقوق والحريّات الفرديّـة، وهوالنطاق الـذي يتنافس فيه الأفراد لتحقيق رغباتهم الشخصـيّة والخاصّة بهم... وبهذا يتحول المجتمع المـدني إلى مساحـةٍ يُسـمَح فيه للفرد ليعمل على تحقيق رغباته الشخصـيّة بحريّة تامّة، وأنْ يتمتع بالحريّة نفسـها لتحديد رغباته وعقائـده... إنّ الفردانيّـة والملكيّة والسوق الحرّة هي العناصـر المؤلّفة للمجتمع المدني، وتمثّل الأساس الرئيس للاقتصاد السياسـي والنظريّة الليبرالية) (1).

إنّ حريّـة التعبير وحريّـة العقيدة وغيرها من المزاعم التي تنادي بها الليبرالية الكلاسـيكية ليست سوى محاولات لبسط حريّة أكثر من أجل تحقيق وتفعيل (الثنائي المتلازم المتمثل بالنفعيّـة والتلـذذ الإنسانوي العلماني). كما يجب تأكيد ملحظ هام، وهو أنّ هذا الثنائي يسـتبطن غايات غير مشروعة وغير أخلاقية، وأنّ انتقادنا له لا يعني مخالفتنا مع النفعية المشروعة والأخلاقيّة والتمتع بالملذات المشروعة والأخلاقيّة.

إنّ المجتمع المـدني الليبرالي هومجتمع تكون علاقات الأفراد فيه وفق ذرائعيـةٍ تحكمها المنفعـة والربح. إنّ الإنسان في مثل هذا المجتمع يعتمد رؤية نفعيّة مسـتمدّة من أساس الربح الاقتصادي البَحْت، وينظر لسائر الأفراد في إطار علاقته معهم بنظرة ذرائعية لتحقيق أهدافه، وإنّ كل إنسان يجلب ذاته وهويّته للسوق من أجل

1- محمـد تقي برومنـد، جامعه مدني از ديدگاه كارل ماركس، (المجتمع المدني من وجهة نظر ماركس)، نشـر پازى تيگر, 1384ه-.ش صص 74 - 70.

التبادل والتعامل التجاري. إنّ الروح التي تحكم المجتمع المدني الليبرالي منبثقة من الاغتراب والانسلاخ عن الذوات لدى الأفراد، ومن تغلّب ذلك الشعور المرير بالغربة والاضطراب المنهِك الذي تعانيه الذات الإنسانيّة المعاصرة. إنّ المجتمع المدني هومجتمع مخدوع خضع طوال القرنَين التاسع عشر والعشرين للنظريات العلمانيّة والعلوم الإنسانيّة ذات الطابع الإنسانوي، إذ هيمنت على أفراده أجهزة الإعلام والرقابة الأمنية والبوليسية والقمعيه. فضلاً عن ذلك فإنّه مجتمعٌ تحكمه نزعة فردانيّة (ذاتانيّة/Subjectivism) تقدّم الصورة الفرديّة للنزعة الذاتنية الحداثوية، وإنّ كلّ كائن إنساني يعدّ ذاته موضوعة نفسيّة، وبهذا يتكوّن تنافس عنيف بين الذوات النفسيّة الفرديّة في مناخ ممتلئ بالمنافسة المتوحشة بين الأفراد، و تحدث خصومة عميقة في بيئة ملأى بالشعور بالوحدة والعداء وسوء الظن والمحاربة بين الأفراد. إنّ المجتمع المدني في صورته ما بعد الحداثويّة في القرن العشرين (المرحلة التي نسمّيها بمرحلة المدينة المتأزّمة ما بعد الحداثوية) ولاسيما في مرحلته الموسومة ب-«اللامعياريّة» (1) التي ظهرت وهيمنت خلال العقدَين الأخيرَين من القرن العشرين، يفتقر للمعنى وأسير ب-(العبثيّة) (2)، إذ ينتهي

1- Anomie، اللامعيارية هي الحالة التي تقل فيها قدرة المجتمع على التوجيه الأخلاقي لأفراده. وضع المصطلح لأول مرة من قبل عالم الاجتماع إميل دوركايم، والذي وصف فيه تضاؤل التزام الناس بالمعايير إلى حدّ يتعطّل معه عملها؛ فتفضي بالمجتمع إلى الفوضى، والصراع التناحري، و ارتفاع معدلات الجريمة والانحراف والانتحار، وقد تؤدّي إلى التفسّخ والانحلال.

2- Absurdism، العبثية مدرسة أدبية فكرية، تدعي أن الإنسان ضائع لم يعد لسلوكه معنى في الحياة المعاصرة ولم يعد لأفكاره مضمون، وإنما هو يجتر أفكاره لأنه فقد القدرة على رؤية الأشياء بحجمها الطبيعي نتيجة للرغبة في سيطرة الآلة على الحياة لتكون في خدمة الإنسان، حيث انقلب الأمر فأصبح الإنسان في خدمة الآلة، وتحول الناس إلى تروس في هذه الآلة الاجتماعية الكبيرة. وفي تعريف آخر، العبثية هي عبارة عن حالة الصراع بين 1(ميول الإنسان للبحث عن هدفه من الحياة و 2) عدم مقدرته على فعل ذلك.

إلى تـدمير نفسه بنفسه. لأنَّ دوّامـة (ثنائيـة) الربح–التلذذ الإنسانويّ المُعَلمَن لا تسـتطيع الاسـتمرار حتّى اللانهاية، وإنّ منطقها الوجودي يقتضي أنّ الوصول إلى مرحلة المجتمع المدني المسلوب من المعنى والعبث يؤدّي إلى التغيير والسير باتجاه الانهيار.

يشـير الفيلسوف الحـداثوي الألماني «فيلهلم فردريش هيغل» إلى هيمنـة منطق الربـح الفردانيّ و «السـلوكيات الاجتماعيّـة» المتطابقة مع منطق الاقتصاد الرأسـمالي في سـياق حديثه عن مفهوم المجتمع المدني، ويسـتنتج أنّ المجتمع المدني الليبرالي الرأسمالي سيقضي على نفسه في نهايـة المطـاف. لقـد حاول هيغل أن يقـدّم نموذجاً ينظّم المجتمع المـدني «تنظيماً عموديّاً» كي يكون حائلاً دون انهياره. ولكنّ محاولته باءت بالفشل ولم تلقَ ترحيباً لدى الليبراليين، حتّى انتقدوا فكرته.

إنّ المجتمع المـدني عند هيغل يتمثل بمجموعة من السـلوكيات الاجتماعيّة التي يحددها منطق الاقتصاد الرأسـمالي، الذي يعكس بدوره نمط السوق وسـلوكه، ولكنّ وجودها (السـلوكيات) يمتاز عن ماهيّة الاقتصاد. إنّ هيغل وضع هذه السـلوكيات بين الأسـرة والدولة وأضفى عليها معنىً تاريخيّاً. إنّ المجتمع المدني هي اقليم الفرد الأنانيّ الباحث عن ذاته الذي يبحث عن سبل تحقيق رغباته...

ص: 138

يتأسّف هيغل على هـذا الواقع، إذ يرى أنّ المجتمع الحـداثوي فقـد طاقاته لاستيعاب الحياة الأخلاقيّـة. إن المجتمع المدني يسـمح للفرد المتحرر بـأن يُهتَـدى من خلاـل رغباته فقط وأنْ يحرر نفسه من كلّ القيود الأخلاقيـة. إن ردّ الفعل الاجتماعيّ يعكس سـلوك السوق وهي قضـيّة ذرائعية فحسب، فكلُّ فردٍ يعدّ الآخر وسـيلة لتحقيق أهدافه. إنّ المجتمع المدني هومكان فردٍ يكون موضوعاً لأهدافه الشخصيّة. إذن فإنّه مجتمع تصطدم فيه المصلحة الشخصيّة الفرديّة مع المصالح الفرديّة لدى الآخر، وتشيع فيه الفردانيّة والأنانيّة والتجزئة. لقد تناول هيغل فكرة ضـياع الأخلاقيـات في المجتمع الحـداثوي، وفكّر مليّـاً في خطورة غيـاب الحياة الأخلاقيـة من المجتمع المـدني، وأوضـح أنّ هـذا المجتمع إنْ تُرك هكذا لحاله سيقوّض ذاته: (إن الجزئيّة [يقصد المجتمع المدني] إنِ استمرّت هكذا في تلبية الاحتياجات والرغبات الآنيّة، وأطلقت العنان للأهواء الذهنيّة، فسـتقوّض نفسها ومفهومها الأساسيّ خلال عملية تلبية هذه الغايات). إنّ الحلّ الثالث الذي يقدّمه هيغل للمجتمع المدني يتبلور في تأكيده استيعاب حقيقة تنصّ على استحالة ترك المجتمع المدني لحاله، وإلّا فإنّه سينهار ويتجزّأ (1).

نرى بعد هيغل، «كارل ماركس» الذي تناول قضيّة المجتمع المدني الليبرالي، مبيّناً أنّ الفرد والحريّات والمصالح الخاصّة

1- كارل ماركس، درباره مسأله يهود، كامى در نقد حق فلسفه هكل، (حول مسألة اليهود)، ت: مرتضى محيط، نشر اختران، ص 35.

والفرديّة والأنانيّة هي العناصر المؤلّفة للمجتمع المدني. كان ماركس يعتقد بأن المجتمع المدني هومجتمع مجزّأ يكون موضوعه الإنسان الأنانيّ السلبي (1).

يتحدّث ماركس في كتابه المعنون (حول المسألة اليهودية) (2) عن حقوق الإنسان والمجتمع المدني قائلاً:

قبل كلّ شيء يجب أن نعرف أنّ ما يطلق عليه (حقوق الإنسان) للتمايز عن (حقوق المواطن) ليس هو سوى حقوق أعضاء المجتمع المدني، أي حقوق الإنسان الأناني المنفصل عن سائر الأفراد والمنسلخ عن الجماعة (3).

يرى ماركس أنّ المجتمع المدني هو مجتمع الأفراد (المنغمسين في ذواتهم والمتقيدين بالأهواء الشخصيّة والمنفصلة عن الجماعة)، ويعتقد بأن كلّ ما ورد في (حقوق الإنسان) لا تتجاوز ذلك الإنسان المنطوي والمنعمس في ذاته والأسير بقيود أهوائه ومصالحه ورغباته. يقول ماركس بهذا الصدد:

إنّ مفهوم الأمن لا يتيح للمجتمع المدني إمكانية التغلّب على أنانيّته. على العكس من ذلك، إنّ الأمن يضمن الأنانيّة. إذن فإنّ (حقوق الإنسان) لا يتجاوز حدود الإنسان المدني المنطوي على

1- المصدر نفسه، ص 37.

2- On the Jewish Question.

3- رنه سدي يو، تاريخ سوسياليسم ها (تاريخ الاشتراكيين)، عبدالرضا هوشنك مهدوي، نشر نو، 1363 ه-.ش. ص 7.

نفسه والمتقيّد برغباته وغاياته الشخصيّة والمنسلخ عن الجماعة. إنّ مفهوم (حقوق الإنسان) لا يعدّ الإنسان كائناً نوعيّاً؛ وليس هذا وحسب، بل إنّ الحياة النوعيّة والمجتمع أيضاً يُعد (وفق نظرية الحقوق الإنسان) مجالاً غريباً على الفرد، يتسبب بالتقييد لاستقلال الأفراد. إنّ القيد الوحيد الذي يخلق الآصرة بين الأفراد هوالاحتياج الطبيعي والمصالح الشخصيّة وحفظ الملكيّة وأناتهم الذاتيّة. (1)

إنّ المجتمع المدني الليبرالي هومجتمع الأنانيين والنفعيين والمنقطعين عن الآخر، فكلّ فردٍ في هذا المجتمع يعدّ نفسه ذرّة قائمة بذاتها، إذ تحرّكها (النفعيّة والتلذذ العلماني الإنسانوي) وتسيّ سلوكها وتحدد حياتها، وإن هذه الذات، أوهذا الفرد يعدّ الآخرين وسائل لتحقيق رغباته، وإنّ اقترابه وابتعاده عن الآخر منوط بمنطق (المنفعة والربح) والسوق الليبرالية. إنّ باطن المجتمع المدني الليبرالي يتمثّل بالأنانيّة واستقلالية الذات الإنسانويّة، إذ يضفي على جوهر العلاقات الفردية والمدنية طابعاً ذرائعيّاً وربحيّاً، ويبعد الكائن البشري عن حقيقته وفرديته الأصيلة. إنّ مثل هذا المجتمع هومجتمع الغرباء والجشعين والاستغلاليين وعبيد الدينار والدرهم، حيث تقتصر الغايات والأماني الإنسانيّة الساميّة في أتفه الأهداف والمطامع الضيّقة والماديّة، وتهيمن روحية التشاؤم والتنافس وسوء الظن وحبّ المال والجاه على طبيعة العلاقات الفرديّة والأسريّة

1- رنه سدي يو، تاريخ سوسياليسم ها (تاريخ الاشتراكيين)، عبدالرضا هوشنك مهدوي، نشر نو، 1363ه-.ش. ص 7.

وبين الأصدقاء والأقارب والزملاء والجيران. يعبّر المجتمع المدني عن هذه الأنانيّة والحرص على الربح والتلذذ الماديّ بمسميات عدّة ك-«الإزدهار الفردي» و «الاستقلال الفردي» و «البحث عن السعادة» و «العقلانيّة» واتباع «منطق السوق الحرّة» و «البلوغ الفردي» و «حبّ الذات» و «الرفاه» و «التقدّم»، ويروّج لهذه المصطلحات ويمجّدها ويعد المجتمعات الفاقدة لها مجتمعات (متخلّفة) وغير (متطوّرة) و (الفاقدة للمجتمع المدني).

يمكن تلخيص الخصائص الرئيسة للمجتمع المدني الليبرالي في النقاط الآتية، وهي نفسها من صميم نظرية الليبرالية الكلاسيكية والليبرالية الجديدة والديمقراطية الاشتراكية بمختلف أنماطها، وكذلك من خصائص المجتمعات الليبرالية الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية:

1- إنّ المجتمع المدني هومجتمع ذرّي (Atomism) يكون كل فردٍ فيه ذرّة أنانيّة نفعيّة قائمة بذاتها.

2- إنّ المنطق الحاكم على سلوك الأفراد (الذرّات النفسانيّة) في المجتمع المدني يتمثّل بثنائية (الربح - التلذذ) المُعَلمَن الإنسانوي.

3- إنّ الأفراد في المجتمع المدني يمثلون ذراتٍ منفصلة ومنفردة وغريبة بعضها عن بعض، يتنافسون في حلبةٍ غير معلنة ويتخاصمون على تحقيق المزيد من الأرباح. إنّ كل ذرّة نفسانيّة أو كلّ فرد في هذه المباراة يعدّ الآخرين أعداءه، (سواء بالقوّة أوبالفعل)، ويحدد

علاقاته معهم على أساس هذه النظرة الذرائعية، وفي إطار منطق الربح السوقي الرأسمالي المعلمَن.

4- إنّ الأفرادَ في المجتمع المدني منفصلون بعضهم عن بعض وغرباء ومتخوّفون بعضهم من بعض، حيث يعيشون في بيئة مشحونة بالتشاؤم وسوء الظن والعداء. إن هذه القيود المفروضة على الأفراد تدرج ضمن الغايات الدنيئة للحداثة التي تدعوإلى نزعة إنسانويّة في علاقة الإنسان بعالمه، وبالتالي أقصت الأفراد عن حقيقتهم النوعيّة وفرديتهم الأصيلة لتولّد عندهم شعوراً عميقاً بالاضطراب والهول والقلق.

5- إنّ المجتمع المدني في أولى مراتب تمظهره أقصى المضامين الدينية الأصيلة والسامية، ولاسيما مضامين العقيدة الكاثوليكية وأمثالها، وروّج لأهداف معلمَنة كالرغبة في الحصول على رأس المال، وبثّ أوهام لدى الأفراد جعلهم يعتقدون بأنّه بالعمل الشاق وبكنز الأرباح (كتلك النزعة المادية التي نراها لدى أصحاب رؤوس الأموال الجشعين في العصر الفيكتوري في أوروبا والداعين لها، وتحديداً في أعمال «تشارلز ديكنز» (1) و«أونوريه دي بلزاك» (2)) يمكن الوصول إلى الطبقة الأرستقراطية البرجوازية، وأنْ يكون الفرد من أصحاب رؤوس الأموال الكبار واللحاق بطبقة الأثرياء، وبهذا تكوّن

1- (1812-1870م)، Charles John Huffam Dickens، روائي إنجليزي. يُعدّ بإجماع النُّقّاد أعظم الروائيين الإنكليز في العصر الفكتوري.

2- (1799-1850م)، Honoré de Balzac، كاتب، وروائي، وكاتب مسرحي، وناقد أدبي، وكاتب مقالة وصحفي فرنسي.

ضرباً من المعاني الناسوتيّة المعلمَنة النفعيّة للحياة الدنيويّة. لقد انصبّت جلّ المحاولات والجهود الفرديّة خلال القرنَين الثامن عشر والتاسع عشر في سبيل اتباع هذا السلوك، إذ كانت الأماني الفرديّة تتحقق بالوصول إلى (النموذج المثالي للفرد البرجوازي الذي نجد نماذجه في الطبقة الرأسماليّة العلمانيّة وقتئذ). لقد اعتمدت الأجيال المتلاحقة والمجتمعات المدنية الليبرالية هذا السلوك، وظهرت حركة كبيرة بين الأفراد (وهي حركة لم تحقق شيئاً إلّا للقليل من الأفراد، وكانت عبثاً للكثير منهم) للوصول إلى الإنسان البرجوازي المتكامل. في هذه الأثناء كانت آراء فلاسفة عصر التنوير ووعودهم الواهية المنسوجة في الخيال، ترسم صوراً عن السلام والرفاه والحريّة والجنّة الأرضيّة، كانت تعزز هذا النهج السلوكي الذي عصف بالشعوب الأوروبيّة. ولكن ما إن دخل الغرب الحداثوي في مرحلة ما بعد الحداثة وواجه أزماتها ارتطمت رؤوس المتوهمين والمخدوعين بصخرة الواقع، وانهارت المرحلة الأولى من مراحل المجتمع المدني التي كانت مبنيّة على الليبرالية الكلاسيكية. لقد كانت نظرية المجتمع المدني في أولى مراحلها تدعوإلى تحقيق الحريّة والمساواة بين الأفراد، وكذلك تروّج أفكاراً إلحاديّة كمحاربة الدين والتعاليم الدينية، (التي عبّر عنها بعضٌ بالخرافة) وتبنّت الحركة النسويّة (Feminism) بحجة المطالبة بحقوق النساء، ورفعت شعارات كاذبة كانقاذ سائر الشعوب من الجهل والأسر والعبوديّة (!!) من أجل تبرير الخطط الاستعماريّة، وقد اعتمدت هذه النظريّة (نظرية المجتمع المدني) كل

هذه المزاعم والشعارات والمتبنيات من أجل تدعيم حياة أفرادها.

6- تحوّل المجتمع المدني خلال مرحلته الثانية بالتدرّج إلى مجتمعٍ مضاد للمثاليات وهارب منها، إذ واجه العالم الغربي بدءً من القرن العشرين أزمة ما بعد الحداثة، وظهرت المدينة المأزومة ما بعد الحداثويّة، ونسي المجتمع المدني المثاليات العلمانيّة التي كان ينشدها في مرحلته الأولى. لم يعد المجتمع المدني فاقداً للمعاني المتعالية المنشودة فحسب، بل أصبح فاقداً لأيّ معنى. إنّ مثل هذا المجتمع الذي تورّط بأزمة تقويض المعنى، باستناده إلى (ثنائيّة الربح - التلذذ) أمسى أسيراً ب-(عالم الحياة الجنسيّة) (1)، لتظهر للعيان نتائج خطيرة كتساقط كلّ القيم، والتهرّب من المسؤوليّة على نطاق واسع، وأزمة الهويّة، واستلاب المعنى من كلّ المعاني، وتفريغ نزعة (التلذذ) من اللذة، ليهيمن ويفرض سيطرته (عالم الحياة الجنسيّة) على كلّ الأمور. في مثل هذه المرحلة يميل الوجه الغالب للإنسان المدني (في مرحلته الثانية) إلى صورة «ميرسولت» (2) التي

1- Life world، أوعالم الحياة، مفهوم طوّره الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس في نظريته الاجتماعيّة. بالنسبة إلى هابرماس، فإن عالم الحياة هوأكثر أوأقل بيئة من الكفاءات والممارسات والمواقف التي يمكن تمثيلها من حيث الأفق المعرفي. وفي المجتمعات المتطورة وبالغة التعقيد فان الميدان العام (المجال العام) يشكل بناء وسيطا ما بين النظام السياسي من جهة والمجالات الخاصة لعالم الحياة Life world وأنظمة السلوك المتخصصة الفعّالة من جهة اخرى.وفي اطار الاجراءات الديمقراطية فان الميدان السياسي العام وحسب رأي (هابرماس) هوهيكل اتصالي يجد أساسه في المجتمع المدني وبهذا فانه متجذر في عالم الحياة Life world.

2- Meursault، إحدى الشخصيات الرئيسة في رواية (الغريب) للروائي الفرنسي (ألبير كامو). وميرسولت في نصّ الرواية هوجزائري فرنسي، اكتشف وفاة أمه. يظهر اللامبالاة لوفاتها، والتي أظهرت انفصال عاطفي عن البيئة المحيطة له. ميرسولت أيضا رجل صادق، صادح بالحقيقة، لا يخشى أحدا ولا يعير أحدا أي اهتمام، هويعتبر غريبا لهذا المجتمع بسبب اللامبالاة.

رسمها «كامو» (1) في نصوصه، ويوضّح عبثيّته، لتتّضح انعكاساتها الأدبيّة في نصوص «صاموئيل بكيت» (2) و «فردريش دورينمات» (3) وفي رواية «رجل يتأرجح» (4) ل-«سول بيلو» (5)، وتتضاعف وتنتشر في سائر النصوص والانتاجات الأدبيّة.

7- إنّ المجتمع المـدني ليس مجتمع الواعين الـذين يملكون حريّة الاختيار. لقد كان هذا المجتمع في مرحلته الأولى مجتمع المتوهمين الربحيين الذين كانوا ينشدون تحقيق المسـتحيل، وفي مرحلته الثانية أمسى مجتمع الذوات المضطربة والمرهونة بالعَبَثية الذين واجهوا أزمة تقويض المعنى. ولمّا كانت اللذة الجنسـيّة هي اللذة الأخرى المشمولة بمشروع تقويض المعنى، أمست فاقدة للمعنى أيضاً. ولذلك ملأوا بيئتهم بضربٍ من الجنسانيّة السقيمة التي قال عنها «رولان بارت» (6): (إنّ الجنسانيّة موجودة في كلّ مكان، إلّا في داخل الأمر الجنسي). إن المجتمع المـدني في القرن العشـرين وفي العقـدين الأولَين من القرن الواحـد والعشـرين يمثّل تلك المدينـة المأزومة في عصـر ما بعد الحداثة التي تغوص يوميّاً

1- Albert Camus، ألبير كامو، (1913 - 1960م)، فيلسوف وجودي وكاتب مسرحي وروائي فرنسي-جزائري.

2- (1906-1989م) ،Samuel Barclay Beckett، كاتب مسرحي, وناقد أدبي وشاعر ايرلندي.

3- (1921-1990م) ،Friedrich Dürrenmatt، روائي وشاعر وكاتب مسرحي سويسري ألماني.

4- Dangling Man

5- (1915-2005م) ،Saul Bellow، روائي وأستاذ جامعي أمريكي، حصل على جائزة نوبل في الأدب سنة 1976.

6- (1915-1980م) ،Roland Gérard Barthes، فيلسوف وناقد أدبي، ودلالي، ومنظر اجتماعي فرنسي.

في مستنقع العبثيّة. إن أجهزة الإعلام وخطابها، والعلوم الإنسانيّة، والنظرية النيوليبرالية، وعالم الحياة الجنسيّة المنبثقة من رحم الثورة الجنسانيّة، والفنون والأدب والعمارة والثقافة المبنيّة عليها، كل هذه الحقول تهيمن على الإنسان الواقف في ساحة العبثيّة، وتحرّكه وتسيّره وتستخفّ بأساليبها وأدواتها الخاصّة من دون أنْ يشعر، وتقمع طاقاته ورغباته وامكانياته التي تستيطع النهوض به وتنميته، مبررة عبوديته تحت لواء الحريّة والبحث عن السعادة واللذة والرفاه. ولكن المحنة المستمرة التي يعانيها منها الإنسان المتورط بالمجتمع المدني المأزوم، (وهي محنة تبدومن دون سبب) تنذره دوماً بأنّه يواجه وضعاً خطيراً، وهوأسير في سجن مُظلِم. ولو إنّ الإنسان المنتمي للنزعة الذريّة (Atomism) والمرمي في عبثيّة المجتمع المدني الثاني لا يملك آذاناً صاغية لمثل هذا الإنذار. ولكن النزعة الذريّة ودوّامة (الربح- التلذذ) المغلَقة التي تسببت بانهيار المعنى على نطاق واسع، حتّى على صعيد (الربح والتلذذ)، ستنتج -كما تنبّأ هيغل - انفجاراً هائلاً ومقوّضاً يمكن أن يكون مقدمة لمعرفة عمق الفاجعة التي يواجهها الإنسان الذرّي، عسى أن يعود لإيمانه الديني، ويُزيل عاهة (العبثيّة)، ويردم جدران سجن المجتمع المدني الليبرالي، ليتمتع بالحريّة باتباعه الولاية الإلهيّة.

ص: 147

الخلاصة

* إن الليبرالية الكلاسيكية هي أوّل أيديدولوجية بلورها الفكر الغربي الحداثوي.

* إن النظريات المنتمية لنظرية الليبرالية الديمقراطية هي المتحدّثة الرسمية باسم أصحاب رؤوس الأموال العلمانيين الإنسانويين في عالم الحداثة. وإن حقل الليبرالية الديمقراطية تتضمن ثلاث نظريات: الليبرالية الكلاسيكية، والليبرالية الاشتراكية (الديمقراطية الاشتراكية)، والنيوليبرالية (الليبرالية الجديدة).

* تبلورت الأسس الفكرية لليبرالية الكلاسيكية في القرن السادس عشر، وظهرت الليبرالية الكلاسيكية كنظرية واضحة المعالم في القرن السابع عشر. يُعَدّ «جون لوك» أحد أقطاب الليبرالية الكلاسيكية الذين قدّموا لأوّل مرّة صورة واضحة لمحاور الليبرالية الكلاسيكية وأساسياتها.

* إنّ النواة الأساسيّة لليبرالية الكلاسيكية

تتمثل بالحريّة الفرديّة، إذ يُعَبَّر عنها بالحرية الليبرالية، وإنّ جوهر الحرية الليبرالية يتمثّل (بالربح والتلذذ) بنزعة علمانيّة إنسانويّة.

* إنّ الحريّة الليبرالية باعتبارها حريّة نفسانيّة (ذاتنية) تسعى للحفاظ على المصالح الرأسماليّة. وبعبارة أخرى إن الحريّة التي تدعو إليها الليبرالية هي لدعم رأس المال ولتداوله بحريّة تامة.

* إن «نظرية التقدّم» و «نظرية حقوق الإنسان» ذات النزعة الليبرالية والإنسانويّة، وكذلك «نظرية المجتمع المدني» و «نظرية العقد الاجتماعي» هي من الفرضيات الأساسيّة والرئيسة في النظرية الليبرالية، وإنّ كلّاً منها تبرر بطريقة أوأخرى النزعة الرأسماليّة المعلمَنة التي تدعمها الليبرالية الكلاسيكية.

* إنّ النموذج السياسي الذي تقدّمه الليبرالية الكلاسيكية يدعوإلى بناء دولة صغيرة غير متدخلة، كي لا تتدخل في جشع أصحاب رؤوس الأموال وما يمارسونه من نهبٍ لثروات وحقوق الطبقات الفقيرة والمعدمة. وإنّ شعار

عدم تدخل الدولة في المجال الاقتصادي هوضمان عدم تدخلها في علمية جني الأرباح على حساب الفقراء.

* تؤمن الليبرالية الكلاسيكية بمجموعة من الأحكام الأخلاقية الثابتة التي يكون لها ماهية علمانيّة إنسانوية، وهي أخلاقيات تفصح عن شعارات الليبرالية ومتبنياتها، وتعكس نمط عيش الفرد الليبرالي والبرجوازي والنفعي والرأسمالي. إنّ جوهر هذه الأخلاقيات مناهض للعدالة.

* تتبنى الليبرالية الكلاسيكية شعار (التسامح والتساهل) المتجذّر في جهود أصحاب رؤوس الأموال المناهضة للدين ذات الطابع الماسوني. إنّ شعار التسامح والتساهل الديني والثقافي مؤطّر بالليبرالية والماسونية، ويعد وسيلة لبسط الجهود الرامية لمناهضة الدين.

* أرسيَت قواعد الليبرالية الكلاسيكية في القرن السابع عشر، وانتشرت وصعد نجمها خلال القرنَين الثامن عشر والتاسع عشر. ولكن

خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشـر، ومع ظهور نتائجها الوخيمة هوى نجم الليبرالية الكلاسـيكية وواجهت أزمة شديدة، واشتدّت الأزمـة خلال العقود الأولى من القرن العشـرين تزامناً مع الحرب العالميـة الأولى، ومع بروز العديد من الأزمات الاقتصادية والاجتماعيّة، ليتبلور بطلان أسسها الفكريّة وشعاراتها الواهية وفرضياتها، وفقدت اعتبارها بالتدرّج وعُزِلَتْ.

ص: 151

المؤلَف في سطور

شهريار زرشناس

شهريار زرشناس

مواليد 1928 في طهران، باحث في مجال الأدب والثقافة والسياسة الإسلامي.

من مؤلفاته:

* دراسات في الرواية المعاصرة، شهريار زرشناس، الناشر: جمعية أفكار الشباب

* العدمية، شهريار زرشناس، الناشر: جمعية أفكار الشباب

* بانوراما من الأدب المعاصر من Zarshenas، الناشر إيران: أميركبير شركة النشر الدولية – 1383

* نظرة سريعة على التاريخ من المثقفين في إيران: مراجعة من المثقفين في الغرب، شهريار زرشناس، الناشر: صباح كتب

* نظرة سريعة على التاريخ من المثقفين في إيران: الجيل الثاني من المثقفين الدستوري والفكري خلال Zarshenas في بهلوي، الناشر: صباح كتب

* الأزمة العالمية للديمقراطية وفكرة الديمقراطية الدينية في إيران، شهريار زرشناس، الناشر: جيش جمهورية إيران الإسلامية، والجمهورية الإسلامية، والمكتب السياسي – 1383

* الرأسمالية (الرأسمالية): نظرة عامة Kalbdshkafanh لطبيعة والتطور التاريخي، شهريار زرشناس، الناشر: كتب الصباح

* المجتمع المدني Zarshenas، الناشر: كتاب صباحا – 1381

* حول Zarshenas الديمقراطية، والناشر: صباح كتب

* النهج الدخل والمدارس الأدبية، الكتاب الأول: Srbastan نهاية الرومانسية، شهريار زرشناس، الناشر: منظمة الثقافة الإسلامية والفكر الأبحاث المنشورة

* النهج الدخل والمدارس الأدبية، مكتب الثاني: عصر الواقعية للأدب ما بعد الحداثة، شهريار زرشناس، الناشر: منظمة الثقافة الإسلامية والفكر الأبحاث المنشورة.

ص: 152

هذا الكتاب

الليبرالية

هـذا البحث من سلسـلة مصـطلحات معاصـرة محاولـة للإحاطـة بالليبراليـة كنظرية ومصـطلح ومفهوم فيه يقدم الباحث الإيراني شـهريار زرشناس قراءة تاريخية للنظرية الليبرالية بوجهيها الكلاسيكي والمعاصر، ويبين الأسس الفكرية والفلسفية التي ارتكزت إليها كما وردت في المدارس والتيارات الحديثة في أوروبا.

المَرْكَز الاسلامي لِلْدِراسَات الاستراتيجية

http://www.iicss.iq

islamic.css@gmail.com

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

(التوبه : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمية لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجانًا. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والنذور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضًا الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟

ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟

تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلات:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 88318722 ـ 021

قسم البيع 09132000109شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹